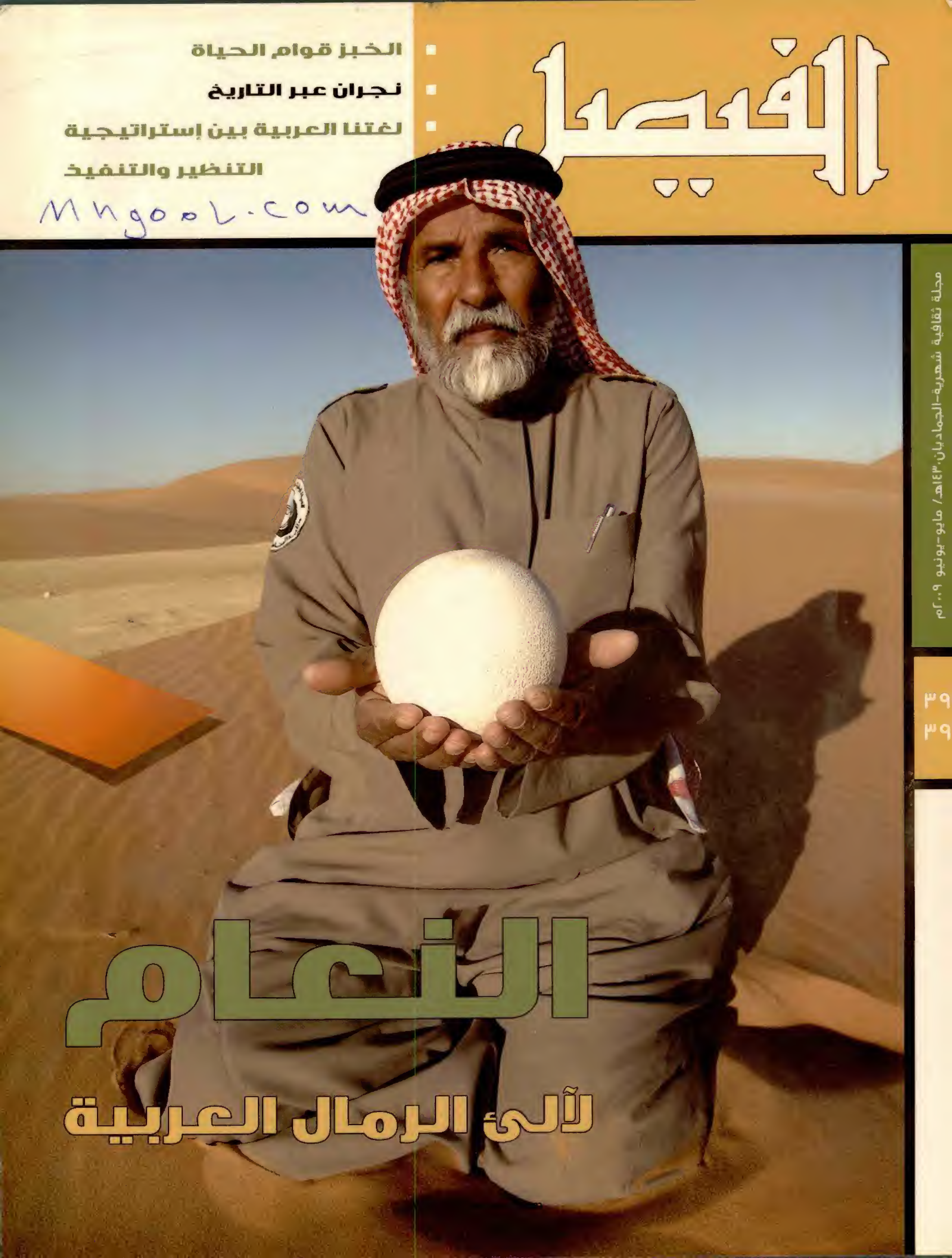


الفيصل
الخبز قوام الحياة
نجران عبر التاريخ
لغتنا العربية بين إستراتيجية التنظير والتنفيذ
Mhgool.com
مجلة ثقافية شهرية-الجماديان ١٤٣٠هـ/ مايو-يونيو ٢٠٠٩م
النعام
لآلئ الرمال العربية


قريباً «الفيصل» إلكترونياً



www.alfaisal-mag.com



# المحتويات




### إدارة التحرير

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

نائب رئيس التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

### هيئة التحرير

حسين حسن حسين

محسن بن حمد الخرابة

حوى النبي علي صالح

سيد علي الجعفري

### الإخراج الفني

الوليد إبراهيم دينار

### المراسلات للتحرير والإدارة

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١

المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

### الاشتراك السنوي

١٥٠ ريالا سعوديا للأفراد، ٢٥٠ ريالا سعوديا للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

### الإعلانات

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

### رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية

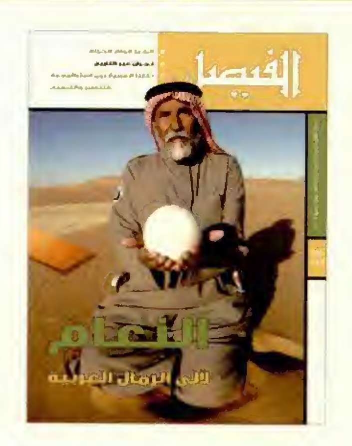
٤١/٢٤٥٠

ردمد ٨٥٢٠-٠٤١١

### الناشر

دار الفيصل الثقافية




بيض النعام في رمال صحراء شبه الجزيرة العربية لا يشبه شيئاً أكثر من لآلئ في أصدافها تعكس ضوء الشمس كالمرايا. وبين بيض كالنهار و(ظليم) كالليل الدامس يتجلى تناقض الإنسان العربي في صحرائه في العلاقة مع طائر بثّ في الصحراء روحاً تجلّت في الشعر الجاهلي وجمالياته الفنية ثم غيّبها الموت

# ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
  في حال إرسال قصة مترجمة يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدرًا من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر، ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض تشمل: عنوانه، واسم مؤلفه، ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
- يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
- يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
- التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
- تشكيل الشعر ما أمكن، خصوصًا القديم منه.
- ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

### السعر الإفرادي

السعودية ١٠ ريالات ـ الكويت ٨٠٠ فلس ـ الإمارات ١٠ دراهم ـ قطر ١٠ ريالات ـ البحرين دينار واحد ـ عُمان ريال واحد ـ الأردن ٧٥٠ فلساً ـ اليمن ١٠٠ ريال ـ مصر ٤ جنيهات ـ السودان ١,٥ جنيه ـ المغرب ١٠ دراهم ـ تونس ١,٢٥٠ دينار ـ الجزائر ٨٠ دينارًا ـ العراق ٨٠٠ فلس ـ سورية ٤٥ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنكاً ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

### الموزعون

السعودية ـ الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع ـ هاتف ٤٨٧١٤١٤(٠١) ـ فاكس ٤٨٧١٤٦٠(٠١)، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢...، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ٥٣٠١ هاتف ٨٤٢٨٢١٢ ـ فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ ـ ٠٠٩٦٣، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣ نهج المغرب ـ ص.ب ٧١٩ ـ فاكس ٧١٤٠٠٣٢٣/ هاتف ٩٣٢٢٤٩ ـ ٧١ ـ ٠٠٢١٦، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٤٦٦١٨٦٥ ـ ٠٠٩٧٤، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٠٠٩٦٢، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٤٩٣٥٦٦٢ ـ فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٠٠٩٧١، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٠٠٩٦٥، المغرب ـ الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢ ـ ٠٠٢١٢ ـ ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية ـ القائد للنشر والتوزيع هاتف: ٢٠١٩٠١/٢ ـ ٣ ـ ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧





## كيف الوصول إلى «الفيصل»

أنا من الذين يتابعون مجلة «الفيصل» منذ سنوات بعيدة، وحريص على اقتناء كل أعدادها، ولم يفتني غير أعداد قليلة، فليتكم تدلّونني على الطريقة التي أتمكن بها من الحصول على تلك الأعداد.

وما أسهل الطرائق لضمان وصول المجلة إليَّ، خصوصاً أنها تنفد من السوق فور وصولها؛ لأن النسخ المخصّصة لحيّنا قليلة جداً حسب المكتبة التي أشتري منها المجلة، إلى جانب عدم وجودها في كل المكتبات؟

محمد زين العابدين

حماة - سورية

### التحرير:

نشكر لك هذا الاهتمام، وبخصوص أعداد «الفيصل» التي تودّ الحصول عليها يمكنك تحديدها، وإرسال القائمة عبر البريد الإلكتروني: Alfaisal Magazine@Yahoo.com، وسوف نوافيك بقيمتها، وكيفية إرسالها.

أما الطريقة السهلة للحصول على المجلة فهي الاشتراك، وطريقته موضّحة في كل عدد، ونتفق معك في أن التوزيع لا يتم على النحو المطلوب في كثير من المدن، سواء في داخل المملكة أم خارجها.

## فنون شهران

أعجبني الاستطلاع المصوّر عن فنون منطقة شهران في المملكة العربية السعودية، ولأنني أعدّ للدكتوراه في الفلكلور الشعبي فإنني آمل الحصول على بعض الأعداد التي تشتمل على مقالات أو استطلاعات تناولت هذا الجانب المهم، وظني أنه على الرغم من تطوّر وسائل الإعلام تبقى الصحافة المطبوعة هي الوسيلة الأوثق للحصول على معلومات عن الموضوعات الجادة.

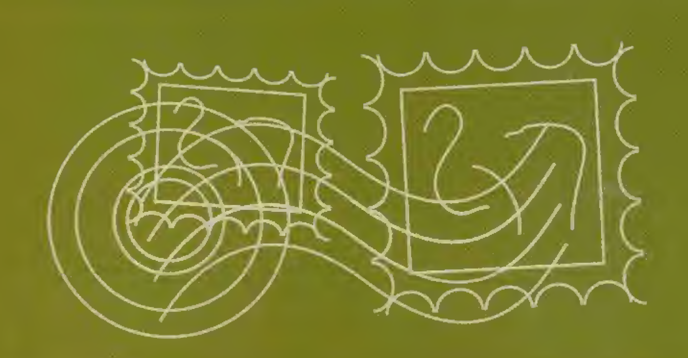
بارك الله في جهودكم، ووفقنا إلى ما فيه الخير.

حاتم محمد أحمد

الخرطوم - السودان

### التحرير:

نشكر لكم هذه الثقة، وستصل إليك قائمة بالموضوعات التي طلبتها، ونشير إلى أن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات



الإسلامية يضم أوعية كثيرة في مختلف المعارف، ويمكن الحصول على قوائم بها من خلال الاتصال المباشر به. وقد يتعسّر الحصول على صور من الموضوعات في الوقت الحالي؛ لظروف الانتقال إلى مقر جديد، ولكن يمكن أن تكون القوائم مفيدة لمن يريد الاطمئنان من الأكاديميين على وجود مصادر لبحثه.
وعنوان المركز هو: المملكة العربية السعودية - الرياض ١١٥٤٣ - ص. ب ٥١٠٤٩

## الأدبية والعلمية

قرأت إشارات في بعض أعداد الفيصل إلى مجلتي «الفيصل الأدبية»، و«الفيصل العلمية»، وسؤالي: هل توزّع هاتان المجلتان في الأسواق؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا أراها في بلدنا؟
محب الفيصل

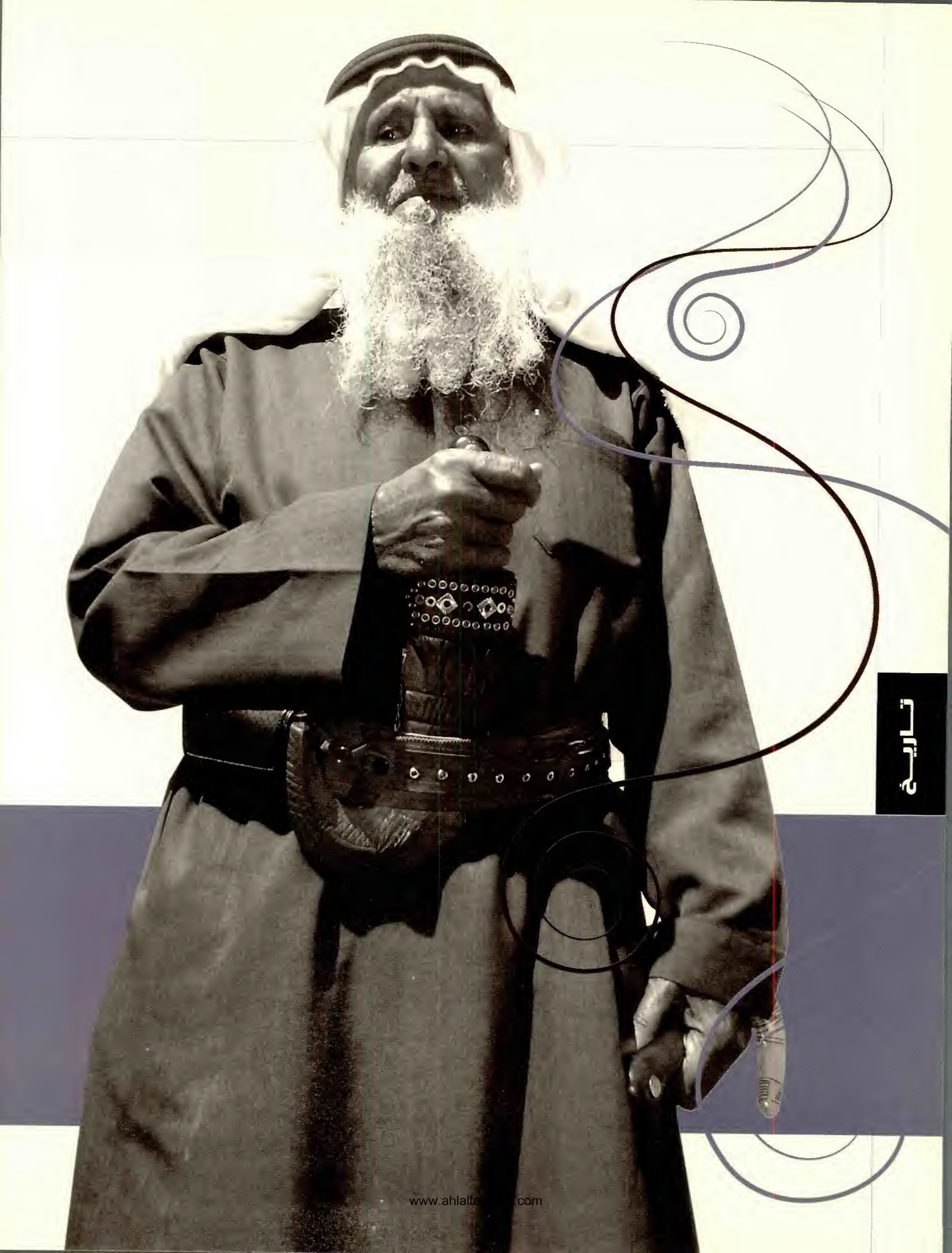
سمير صابر عبدالحميد
حي الفيصل - الجيزة - مصر

### التحرير:

نشكر لك هذه المتابعة لإصدارات «دار الفيصل». وبخصوص مجلة «الفيصل الأدبية» فهي دورية تصدر كل ثلاثة أشهر. وتشتمل على مقالات نقدية، وإبداعات أدبية قصصية وشعرية. ويشارك بالكتابة فيها عدد كبير من الكتّاب، سواء المعروفون أو المبدعون الشباب في إطار دور «الفيصل» في تبنّي المواهب، وإبراز أعمالها.

أما مجلة «الفيصل العلمية»، فهي دورية أيضاً، وتصدر كل ثلاثة أشهر، وتُعنى بنشر الثقافة العلمية في المجتمع العربي من خلال إسهامات بعض العلماء والخبراء والكتّاب المعنيين بمتابعة تطور العلوم في كل المجالات، وهي تثير قضايا علمية معاصرة تهمّ القارئ العربي، وتبسّط له العلوم ليسهل فهمها والتفاعل معها. وتوزع المجلتان على نطاق محدود، وتعتمد في التوزيع على الاشتراك، الذي يتم عبر قسم الاشتراكات والتوزيع، ومن خلال البريد الإلكتروني يمكن الحصول على إجابات وافية، وعنوانه:

Alfaisal Magazine@Yahoo.com



# نجـران عبر التاريخ

هزاع بن عيد الشمري

الرياض - السعودية

تتعمّق نجران في قلب التاريخ القديم حتى تصل إلى مرتبة عليا بين المواقع المشهودة في العصر الحجري. فعلى امتداد ٢٥ ألف عام كانت عامرةً بالآثار والناس والاستيطان. وهذا الأمر جعلها إحدى المدن القليلة في جزيرة العرب - وربما القليلة في العالم - المشهودة على هذه المساحة. ونتيجة لمياهها الجارية من وادي نجران المكوّنة لنهر في قديم الزمان صارت محطّ القوافل التجارية القادمة من أصقاع اليمن والمتجهة إلى أصقاع أخرى في جزيرة العرب، التي تعود محملة بمواد أخرى من تجارات ذلك العصر. ونتيجة لمياهها أيضاً وخصوبة أرضها وتوسُّطها أصبحت نجران منطقة صراع بين القبائل والممالك العربية الجنوبية.




صانع الخرازة

اسم نجران

نحن لا نعرف لماذا سمِّيت (نجران) بهذا الاسم، ولا متى كان ذلك، وفي أيّ زمن كان، عدا أن القزويني ذكر في آثار البلاد أنه بناها نجران بن زيدان بن سبأ بن يشجب[1]. وسمَّاها بطليموس: نكرا[2]، كما ذكرها سترابون: (نجرانا)، و(نجراني)[3]. ويُقال: إن اسمها كان في السابق: مدينة (رجمن)[4]. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن (رجمن) هي في الواقع مدينة من مدن نجران، وأن نجران لم تكن في الأصل مدينة معينة، وإنما هي أرض تضم جملة مدن، منها هذه المدينة. إلا أن الناس خصّصوا لفظة (نجران) على مرور الزمان بإحدى المدن، وهي مدينة (رجمن)، حتى عُرفت بها، فضاع بذلك اسمها القديم. ويحتمل - على رأي أحد الباحثين - أن تكون (رجمن) هي (رعمة)، و(رعمة) الابن



البنادق لها أشكال مختلفة

الرابع لكوش نفسه. وذكرت (نجران) مع (رجمن)، فهي - إذاً - من المواضع القديمة في عهود ما قبل الميلاد، سواء أكان اسم (نجران) اسم أرض أم اسم مدينة[٥]. وقد يكون جبل (رعوم) اليوم الذي يقع في قلب المدينة القديمة ذا صلة بـ(رعمة).

### أحداث نجران ما قبل الإسلام

مرّت نجران بأحداث مهمة قبل الإسلام، نوجزها فيما يأتي:

- هاجم كرب إيل وتر (٦٢٠-٦١٠ ق. م) قبائل المحامر وعامر وأوهاب الذين يسكنون نجران، وغنم منهم غنائم كبيرة. وهذا الملك هو أول من اتخذ لقب ملك من ملوك اليمن[٦].
- نزل قوم من جرهم نجران، فتولى أفعى نجران، واسمه: القلمس بن عمرو بن همدان بن مالك بن منتاب بن زيد بن وائل بن حمير، على نجران من قبل بلقيس ملكة اليمن، فبعثته إلى سليمان عليه السلام، وبثّ دين اليهود في قومه.
- ارتحلت جرهم منها، ثم نزلها بنو حمير بعد تغلبهم، وأنشأ دولتهم بعد أن أخضع شمّر يرعش سنة ٣٠٠م قبائل المحامر وعامر، وقتل عدداً كبيراً من رجالهم، وغنم غنائم كبيرة[٧].
- ارتحل عمرو بن عامر بن حارثة الأزدي بالأزد بعد سيل العرم إلى نجران، فحاربتهم مذحج، فارتحلوا عن نجران إلى مكة[٨].
- ولما تملّك ذو نواس زرعة بن تبان أسعد في اليمن (٥١٥-٥٢٥م)، وهو صاحب الأخدود في نجران، وكان آخر ملوك حمير، بلغه عن أهل نجران أنهم أتاهم رجل من آل جفنة من غسان، فردَّهم إلى دين النصرانية، فسار إليهم ذو نواس حتى احتفر أخاديد في الأرض وملأها ناراً. فمن تابعه على دينه خلَّى عنه، ومن قام على النصرانية قذفه بها، حتى أتى بامرأة ومعها صبيّ صغير ابن سبعة أشهر، فقال لها ابنها: امضي يا أماه على دينك؛ فإنها نار وليس بعدها نار[٩]. فقيل: إن عدد المقتولين من أصحاب الأخدود كانوا قريباً من عشرين ألفاً، وقيل: نيِّف وثمانون شخصاً، وقيل: اثنا عشر ألفاً، وذكر آخرون أن عددهم سبعون ألفاً[١٠]. وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة في سورة البروج: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ



بائع الخناجر

بالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (البروج: ١-٨).

- من وجوه أهل نجران في الجاهلية: قس بن ساعدة الإيادي. وكان حكيم العرب، وكان مقراً بالبعث، وقد ضرب العرب بحكمته وعقله الأمثال، وقد شاهده رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق عكاظ قبل البعثة[١١].
- وفي نجران كعبة نجران، بناها عبدالمدان بن الديان الحارثي - وبيت عبدالمدان بن الديان بيت اليمن كلها رئاسةً وشرفاً وكرماً - مضاهاةً للكعبة، وعظّموها وسمّوها كعبة نجران. وكان بها أساقفة مقيمون، وهم الذين جاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمباهلة، قيل: إن كعبة نجران كانت قبة من أدم من ثلاثمئة جلد، إذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت حاجته، أو مسترفد أرفد، وكانت على نهر يستغل عشرة آلاف دينار تستغرق القيمة جميعها[١٢]. قال الشاعر:

وكعبة نجرانَ حتمٌ عليك
حتى تُناخي بأبوابها[١٣]

وكانت نجران مستقلة بشؤونها، يديرها سادات وأشراف، ولها نظام سياسي وإداري خاصّ تخضع له.

### نجران في الإسلام

كانت البعثة المحمدية، وفي نجران - كما قلت - بنو عبد المدان بن الديان من بلحارث بن كعب من مذحج سادات عليها. وفي السنة العاشرة للهجرة وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد العاقب والسيد من نجران، فكتب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب (الصلح)[١٤]. وفي هذه السنة أيضاً بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم[١٥]. وفيها أيضاً بعث عليه الصلاة والسلام إلى بني الحارث بن كعب خالد بن الوليد في أربعمئة، فأسلموا دون قتال. وقدم وفد فيهم: قيس بن الحصين بن يزيد ابن قنان ذو القصة، ويزيد بن عبدالمدان، ويزيد بن المُحَجَّل، وعبدالله بن قُريظ الزيادي، وشداد بن عبدالله القناني، وعمرو ابن عبدالله الضبابي. وأمَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم قيس بن الحصين، فعادوا. (انظر: إسلام الحارث بن كعب، ج٣، ص٦٢١، وما بعدها- الطبري).

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله عنه عاملاً على نجران. ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو بن حزم عامل عليها[١٦]. وقيل: بل أمَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فروة بن مُسيك المرادي، وقال بعضهم: بل جعل أبا سفيان بن حرب الأموي عاملاً عليها[١٧].

وفي الأثر، قال صلى الله عليه وسلم: القرى المحفوظة أربع: مكة، والمدينة، وإيليا (القدس)، ونجران. وما من ليلة إلا وينزل على نجران سبعون ألف ملك، يسلمون على أصحاب الأخدود، ثم لا يعودون إليها أبداً[١٨]. ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كُفِّن في ثلاثة أثواب نجرانية[١٩].

وقد اشتهرت نجران آنذاك بحقول النخيل والحبوب والثياب والجلود والصناعات الحديدية: مثل: الخناجر، والسكاكين، وربما السيوف. وبها أحياء من اليمن كثيرة، ويتخذ بها أدم كثير غزير، وأكثره من صعدة.

### موقع نجران في كتب الرحالين والجغرافيين العرب

بطبيعة الحال، فإن الرحالين والجغرافيين المسلمين يعمّمون موقع المدينة، ويكتفون بأنها تقع بين اليمامة واليمن مثلاً، من دون تحديد لهذا الموضع، فمثلاً يذكر ابن خُرداذبه في كتابه (المسالك والممالك) أنها مخلاف من مخاليف مكة بنجد[٢٠]. وقال ابن قدامة: وهي على طريق اليمامة - اليمن، وبها آبار مشهورة، من مخاليف مكة[٢١]. وفي (لسان العرب)، قال ابن منظور: موضع معروف بين الحجاز والشام واليمن[٢٢]، فأين الثرى من الثريا، وأين الشام من اليمن؟!

وفي صفة جزيرة العرب قال المؤلف المتوفَّى سنة ٣٤٤هـ: كان يقطن مدينة نجران قبيلتا بلحارث وهمدان مناصفةً، وفيها

من وجوه أهل نجران في الجاهلية قس بن ساعدة الإيادي، وكان حكيم العرب، ومقراً بالبعث، وقد ضرب العرب بحكمته وعقله الأمثال

الهَجَر القديمة، وهو موضع الأخدود، والهجر الحديثة، وهي بلد، والحضن: حضن نجران، وهي قرية، وبه نخل.

ومن القرى: سرار وادي نجران وسوائل الجوف، الصغار دون أعراضه، فينتشر منها مواضع كثيرة، فأسرار نجران: شوْكان، والجوز، والداران، والحمدة، والجلاليّان، ونفخة، ونعامان، والبيران، والحضن، وهذه قرى، ويسكن هذه المواضع وادعة من همدان، دون الحضن؛ فإنه دار لوائلة بن شاكر بن بكير من همدان أيضاً، وجيرة لهم من ثقيف[٢٣].

ومن أشهر منتجاتها الزراعية: البر العربي، والذرة، والأترج: فالبر العربي الذي ليس بحنطة، فإذا ملك عجينه، ثم أردت قطع

في نجران شعراء مشاهير أثروا الأدب العربي بشعرهم، منهم: عبد يغوث بن وقاص الحارثي، وجعفر بن عُلبة الحارثي، وعبدالملك بن عبدالرحيم الحارثي، والشميدر الحارثي، وغيرهم


قصر بعد الترميم



أحد روافد وادي نجران

ضرب من المنّ، وهيئته مثل قطع اللبان والمصطكي، وقد يحمل ويعمل منه سكر كبار مطبَّع في قوالب[٢٥].

### شعراء من نجران

في نجران شعراء مشاهير أثروا الأدب العربي بشعرهم، وذلك أنهم ينافحون عن القبيلة في حروبها وأيامها. ومن هؤلاء الشعراء: عبد يغوث بن وقاص الحارثي: الشاعر الفارس المشهور، قتلته بنو تميم بعد أسره، (جاهلي)، وجعفر بن عُلبة الحارثي: شاعر فارس سيد من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وعبدالملك بن عبدالرحيم الحارثي: شاعر مشهور، والشميدر الحارثي، وسويد المراثد الحارثي: الشاعر الفارس، وابن البيلماني (عباسي)، وهو من الأبناء، والنجاشي الحارثي: الشاعر الإسلامي المعروف.

### نجران اليوم

اسم نجران يُطلق على إمارة المنطقة بحدودها الجغرافية، ويطلق على مدينة نجران عاصمة المنطقة. وتقع منطقة نجران في الجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية بين خطَّيْ طول ٤٤ و٥٢ شرقاً، وخطَّيْ عرض ١٧ و٢٠ درجة شمالاً. وتبلغ مساحتها نحو ٤٦٣ ألف كيلومتر، وهي تتكون من سبع محافظات، أهما: حبونا (حبونن)، وشرورة، وبدر الجنوب، وخباش، ويدمة، وثار، وأكثر من ٥٠ مركزاً إدارياً، ويبلغ عدد سكانها نحو ٦٥٠ ألف نسمة.

وتقع مدينة نجران بين جبال من ثلاثة اتجاهات، وتضيق هذه الجبال تدريجياً ناحية الغرب حتى تصطك حيث سد نجران الذي يحجز نحو ٨٦ مليون متر مكعب من المياه، وهو سد حديث، وبناؤه محكم، ومنه يتجه شرقاً وادي نجران الذي يعتقد أنه كان نهراً في سالف الزمان. وعلى ضفافه تقع القرى والأسرار القديمة بما يعرف بنجران القديمة: مثل: الأخدود، والحضن، والقابل. وتتناثر في هذه المنطقة بساتين مشهورة، والنخيل الباسقات، والبيوت المبنية من الطين المتكونة من عدة طوابق، وقد بدا عليها الاندثار والهدم، كما بدا أن بعضها قد رمِّم وصار مشهداً سياحياً. وفي وسط هذه القرى يقع جبل رعوم الذي تتسنَّم قمته قلعة مبنية من الحجر والطين، وتحيط به البساتين والثمار. ثم ينحدر ناحية الشرق وادي نجران، ومع ضفتيه تمتد مدينة نجران الحديثة المبنية من الأسمنت والحديد

شيء منه تبع القطعة تابعة منه تطول كتابعة القبيط والميساني والنسول والهلباء، لا يكون إلا بنجران، ومنه الأدرع الأملس والأحمر الأحرش، واللوبيا، والعتّر، والأقطن، والطهف[٢٤].

ومن ذلك الذرة بنجران في قابل يام - بلد - من ناحية رعاش وراحة، يكون في قصبة الذرة مطوان وثلاثة وأكثر. ومن ذلك الأترج بنجران، ليس حماض فيه كبار أحلى من العسل، تبلغ الواحدة ربع دينار وخمساً وسدساً، وليس له نظير في بلد. ومن ذلك سُكر العشر لا يكون إلا بنجران، ولا يكون منها إلا شق بلحارث فيما بين الهجر وبني مازن، وهو سُكر ينزل من الهواء على ورق العُشر في قولهم وإخاله، فيكون بقدرة الله عز وجل من العشر، وقد يوجد منه شيء في الموضع على غير العشر، وهو

**اشتهرت نجران بحقول النخيل والحبوب والثياب والجلود والصناعات الحديدية ؛ مثل: الخناجر، والسكاكين، وربما السيوف**

كغيرها من البنيان الحديث على مسافة نحو عشرين كيلومتراً أو أكثر.

وبالإضافة إلى زراعة النخيل الكثيف في مدينة نجران، تشتهر بزراعة الحبوب؛ مثل: القمح، والذرة، والعنب، وتشتهر بالصناعات اليدوية، والفخار، والحجر الصابوني، والنسيج، والجلود، والصناعات الخشبية، وصناعة الخيام، والخناجر، والحلي، والجلود. وهذا ديدنها منذ العصر الجاهلي.

ويقع السوق القديم في المدينة القديمة (أبا السعود)، ويقع فيها قصر الإمارة القديم الذي شيّد في عصر الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله، وقد بناه تركي بن ماضي، وكان أمير نجران آنذاك. ويتكون القصر من نحو ستين غرفة. وبداخله يوجد مسجد وبئر قديمة، وقد جرى ترميم القصر.

وقصر سعدان أو العان، وقد شيِّد سنة ١١٠٠هـ، ويعلو جبلاً مشهوراً يسمى العان. ويتكون من أربعة طوابق، وهو مبنيّ من الطين، ويحيط به سور. ويقطن نجران اليوم قبائل: يام، ووادعة، وهمام، والمصعبين، والحارث، ونهد، والصيعر، ومجموعات قبلية أخرى وحضرية.

كانت نجران مستقلة بشؤونها، يديرها سادات وأشراف، ولها نظام سياسي وإداري خاصّ تخضع له



رسوم وكتابات على الجدران



من وجوه أهل نجران في الجاهلية قس بن ساعدة الإيادي، وكان حكيم العرب، ومقراً بالبعث، وقد ضرب العرب بحكمته وعقله الأمثال

## الهوامش

١- آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٢٦.
٢- المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢، ص٥٠٧.
٣- المفصل، ج٣، ص٥٣٤.
٤- المفصل، ج٣، ص٤٥٧.
٥- المفصل، ج٢، ص٥٠٧.
٦- محاضرات في تاريخ العرب، ص٢٤.
٧- محاضرات في تاريخ العرب، ص٢٣.
٨- تاريخ اليعقوبي، ٢٠٣/١.
٩- كتاب التيجان، ص٣١٢.
١٠- المفصل، ج٣، ص٤٥٧ وما بعدها.
١١- مروج الذهب، ج١، ص٦٩ بتصرُّف.
١٢- آثار البلاد، ص١٢٦، والمفصل، ٥٣٣/٣.
١٣- المسالك والممالك، ص١٣٣.
١٤- الطبري، ج٣، ص١٣٩.
١٥- الطبري، ج٣، ص١٤٧.
١٦- الطبري، ج٣، ص١٣٠.
١٧- تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٢٢.
١٨- آثار البلاد، ص١٢٦.
١٩- لسان العرب، مادة (نجر). والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ص٥٣٣.
٢٠- المسالك، ص١٣٣.
٢١- نبذ من كتاب الخراج، ص١٩٣، ص٢٢٨.
٢٢- لسان العرب، مادة (نجر).
٢٣- صفة جزيرة العرب، ص ٣١٨ بتصرُّف.
٢٤- صفة جزيرة العرب، ص٣٥٨ بتصرُّف.
٢٥- صفة جزيرة العرب، ص٣٦٠.

## المراجع


- آثار البلاد وأخبار العباد، زكرياء القزويني، القرن السابع، دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٣٨٠هـ.
- تاريخ الطبري، محمد بن جرير، المتوفَّى سنة ٣١٠هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٣.
- تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية: نبيه فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م.
- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن واضح، دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٣٧٩هـ.
- حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، أحمد سوسة، وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٩م.
- صفة جزيرة العرب، الهمداني، المتوفَّى سنة ١٣٤٤هـ أو بعدها، تحقيق: محمد الأكوع، دار اليمامة للبحث والنشر، الرياض ١٣٩٤هـ.
- كتاب صورة الأرض، ابن حوقل، القرن الرابع، دار الحياة، بيروت.
- كتاب التيجان في ملوك حمير، عن وهب بن منبه، رواية عبدالملك بن هشام، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء ١٣٤٧هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبدالله الكبير وزملائه، دار المعارف بمصر.
- محاضرات في تاريخ العرب، صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٦٠م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، المتوفَّى سنة ٣٤٦هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٨٤هـ.
- المسالك والممالك، ابن خُرّداذبه، المتوفَّى سنة ٣٠٠هـ، مكتبة المثنى ببغداد، عن الطبعة الأوربية.
- نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتاب، قدامة بن جعفر، المتوفَّى سنة ٣٢٠هـ، مكتبة المثنى ببغداد، عن الطبعة الأوربية.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار العلم للملايين ومكتبة النهضة ببغداد، بيروت ١٩٧٠م.
- نجران: ثقافة وتراث، الهيئة العامة للسياحة والآثار.
- نجران منطلق القوافل، عبدالرحمن الأنصاري وصالح آل مريخ، دار القوافل، الرياض ١٤٢٤هـ.



# الخبز
# قوام الحياة



**ربى محمد ديب الدرع**

**الشارقة - الإمارات**

الخبز هو مَلِك المائدة، وقوام الحياة. أنواعه مختلفة، وأسماؤه متعددة، لكنه يُصنع من عجينة مكوناتها الأساسية واحدة تقريباً، وهي الدقيق والماء والخميرة والملح. ومع أن قدماء المصريين هم أول من عرف الخبز، فقد أصبح مشهوراً عند كل الشعوب وفي كل الدول. بل دخل في الأمثال الشعبية، حتى أصبحنا نقول: «بيننا خبز وملح»، في إشارة إلى الوفاء والثقة. أو «لقمة العيش»: كدلالة على الرزق. واقترن اسمه عند المصريين بالحياة، فعرف باسم «العيش». فما حكاية الخبز؟ ولماذا سمّي بهذا الاسم؟ وممَّ يُصنع؟ وكيف؟ وما أنواعه وفوائده؟

### الخبز لغةً

جاء في (لسان العرب) لابن منظور تحت جذر (خبز): الخُبْزُ: الذي يؤكل. والخَبَّاز: الذي مِهْنَتُه ذلك، وحِرْفَته الخبازَة. والخَبيز: الخُبْز المخبوز من أي حَبٍّ كان. والخُبْزة: الثَّريدة الضَّخمة، وقيل: هي اللحم. والخَبْزُ: الضرب باليدين، وقيل: هو الضرب باليد، وقيل: هو الضرب، وقيل: ضَرْب البعير بيديه الأرض، وهو على التشبيه، وقيل: سمّي الخَبْزُ به لضَرْبهم إياه بأيديهم. وانْخَبَزَ المكان: انخفض واطمأنَّ. وتَخَبَّزَت الإبلُ العُشْبَ تَخَبُّزاً: إذا خبطته بقوائمها. وهكذا فإن اسم (الخبز) جاء من طريقة صنعه، عندما يُضرب باليد ويفرد حتى ينضج بسرعة.

### أدوات صناعته

بعيداً من تكنولوجيا العصر وآلاته التي غيّرت طعم كل شيء وشكله: فإن الإنسان اعتاد صنع الخبز بأدوات بسيطة ما زال قسم كبير منها معروفاً حتى اليوم في المجتمعات الريفية والبدوية، وهي:

* الرحى: وهي آلة من الحجر الخشن الثقيل تستعمل لجرش القمح والحبوب وطحنها، وتتكون من حجرين مستديرين، يوضع أحدهما فوق الآخر، ويكون الجزء السفلي منهما ثابتاً، بينما يتحرك الحجر العلوي حول محور خشبي أو معدني تكون قاعدته مثبتة في أسفل الحجر السفلي. وعندما يدور حجر



تنوع طرائق صناعة الخبز

الرحى فإنه يمرّ فوق حبات القمح التي توضع من فتحة دائرية صغيرة في وسط الحجر العلوي، فتتكسر تلك الحبات كلما دار عليها حجر الرحى حتى تصبح دقيقاً ناعماً. وتتكّون الرحى من عدة أجزاء، هي:

- حجران مستديران قطرهما نحو ٥٠ سنتيمتراً، يكون السفلي منهما ثابتاً غير متحرك، وبه ثقب ضيق واحد في وسطه يسمح بمرور محور خشبي أو معدني يثبت في وسطه يسمى (قطب الرحى). أما العلوي، فهو الجزء المتحرك الذي يؤدّي دورانه إلى طحن الحبوب وجرشها، وبه ثقب كبير نسبياً في وسطه يسمح بدخول الحبوب، وثقب صغير آخر في طرفه يوضع فيه المقبض الخشبي الذي نحرّك به الحجر العلوي.
- الفراشة: وهي قطعة خشبية مستطيلة بها ثقب في وسطها تستعمل لمسك المحور الخشبي أو الحديدي وتثبيته حتى لا يتزحزح، وتوضع في فتحة الحجر العلوي.
- الهادي: وهي خشبة على شكل عصا صغيرة توضع في الثقب الجانبي لتكون المقبض الذي ندير به حجر الرحى العلوي.
- القطب أو القلب: وهو المحور الخشبي أو المعدني الذي تدور حوله الرحى.
- اللُهوة: وهي الحفنة الصغيرة من القمح أو الحبوب التي توضع في داخل ثقب الرحى لطحنها.

* الثفال: هو قطعة منسوجة من صوف الغنم وشعر الماعز تبسط تحت الرحى ليسقط عليها الدقيق والحب المجروش، كما يمكن أن تبسط تحت قطع العجين المعدّ للخَبْز.
* المُنخل: هو إطار خشبي مستدير تثبت في أسفله شبكة من السلك المعدني الرفيع متقاربة الثقوب والفتحات تسمح بمرور الناعم من الدقيق، وتبقي الخشن منه. والطحين الناعم الذي ينزل

من المنخل هو الذي يصلح للعجن، أما النخالة فتوضع في صحن آخر، ثم يعاد جرشها وطحنها من جديد حتى تصبح ناعمة.

* صحن العجين: كان يُصنع في السابق من الخشب. أما اليوم فهو من البلاستيك أو الألمنيوم، ويخصّص لوضع العجين قبل تقطيعه. ويختلف حجمه حسب كمية العجين وحاجة العائلة.

للخميرة تأثيرها في صناعة الخبز



* المرصة: هي قطعة من الخشب تكون مربعة أو مستطيلة أو مستديرة، ترصّ عليها قطع العجين وترقق حتى تصبح مستديرة وجاهزة للخبز.
* الصاج: هو وعاء معدني مستدير الشكل قطره نحو ٨٠ سنتيمتراً، وله حدبة تبدأ من عند حافته وتأخذ في الارتفاع حتى تصل في وسطه إلى ارتفاع نحو ١٠ سنتيمترات. وعند استعماله تكون حدبته إلى الأعلى، والجهة الأخرى ناحية النار. وهو يصنع من حديد رقيق حتى يسخن بسرعة، وتكون عملية الطهي عليه سهلة وسريعة. ويستعمل لطهي خبز الصاج، وهو خبز رقيق غير مخمّر، يسمى أيضاً (خبز شراك).

### طريقة عمل الخبز

تشترك المخابز الآلية ومخابز البيوت في صنع الخبز من عجين يحتوي على أربعة عناصر على الأقل، هي: الدقيق، والماء، والملح، والخميرة. وقد يحتوي العجين أيضاً على الحليب، والبيض، والسكر.

ويُصنع الخبز عادةً من خلال خلط المقومات بإحدى طريقتين: الإسفنجة، أو العجين السوي. في طريقة الإسفنجة تتجمع المقومات عبر مرحلتين، فتخلط الخميرة كلها وما يقرب من ثلثي الدقيق والماء أو الحليب في المرحلة الأولى، ويطلق على هذا النوع من الخليط اسم الإسفنجة. ويدع الخبّازون الإسفنجة تختمر تحت حرارة تبلغ نحو ٢٩ درجة مئوية لمدة تصل إلى ست عشرة ساعة، ثم يضيفون المقومات الأخرى، ويدعون الخليط يختمر مرة أخرى مدة قصيرة.

أما فيما يتعلق بطريقة العجين السوي، فإن جميع المقومات يتم تجميعها في مرحلة واحدة لتختمر لما يقارب الساعتين أو الثلاث تحت حرارة تبلغ ٢٩ درجة مئوية. وبعد ذلك يقسّم العجين إلى قطع يتم تشكيلها حسب نوع الخبز المرغوب فيه وشكله، ثم توضع في فرن تبلغ حرارته ما يقارب ٢٣٠ درجة مئوية. وفي المخابز التجارية، توضع أرغفة الخبز في آلات تبريد خاصة تقوم بخفض حرارتها إلى نحو ٣٨ درجة مئوية. ويمكن بعد ذلك، تقطيع الخبز إلى شرائح وتغليفه في الورق أو في أكياس من البلاستيك.

### القمح ومواصفاته

يصنع الخبز غالباً من القمح الذي يطحن ويحوّل إلى دقيق.



الحصول على الخبز أحد هموم الحياة

والقمح يتبع الفصيلة النجيلية، وينتمي إلى مجموعة الغلال التي تضم أيضاً الأرز، والذرة، والشعير، والشوفان، وغيرها. وهو ينمو إلى ارتفاع ١,٥ متر، ويتحول لونه إلى بني ذهبي عندما ينضج، وتحمل سنبلة النبات من ٣٠ إلى ٥٠ حبة. ولكثير من أنواع القمح شعر غليظ صلب يسمى (الحسك) أو (السفا) يمتد من القمة. أما الدول الرئيسة المنتجة له، فهي: كندا، والصين، وفرنسا، والهند، وروسيا، وأوكرانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، ويبلغ الإنتاج العالمي منه نحو ٧٤٠ مليون طن متري في العام. ودقيق القمح ممتاز في الخبز: لأنه يحتوي على مادة بروتينية تسمى الجلوتين تجعل العجين مرناً؛ مما يسمح للعجين المحتوي على الخميرة بالانتفاخ. كما يحتوي القمح على مواد غذائية تشمل البروتين، والنشا، وفيتامين هـ، وفيتامينات ب، والنياسين، والريبوفلافين، والثيامين، إضافةً إلى معادن أساسية؛ مثل: الحديد، والفوسفور.

يبلغ طول حبة القمح عادةً من ٣ إلى ٩ مليمترات، ولها ثلاثة أجزاء رئيسة، هي: النخالة، والسويداء، والجنين. فالنخالة أو غطاء البذرة تُغطّي سطح الحبة، وتتكوّن من عدة طبقات، وتُشكّل ما يبلغ نحو ١٤٪ من الحبة. وفي داخل النخالة توجد السويداء والجنين. وتُشكّل السويداء الجزء الأكبر من الحبة؛ أي نحو ٨٣٪. أما الجنين، فيكوّن ٣٪ فقط من الحبة، وهو جزء البذرة الذي ينمو إلى نبات جديد بعد زراعتها.

وعادةً، يصبح القمح تام النضج بعد نحو ٣٠-٦٠ يوماً من الإزهار تبعاً للظروف الجوية. وخلال مدة النضج يزداد حجم الحبوب وتتصلب تدريجياً إلى أن يصبح النبات كله جافاً، ويتحوّل لونه إلى بني مائل إلى الاصفرار. وقد يكون لون الحبوب الناضجة أبيض، أو أحمر، أو أصفر، أو أزرق، أو بنفسجي، تبعاً لصنف القمح. وقد ميّز العلماء نحو ٣٠ نوعاً من القمح بناءً على الاختلافات في السمات المميزة؛ مثل: الشكل، وأنماط النمو. ومن بين هذه الأنواع ثلاثة فقط ذات أهمية تجارية في معظم الدول، هي: القمح العادي، والصولجاني، والقاسي (قمح المعكرونة). ويصنع

الخبز غالباً من القمح العادي الذي يسمى أيضاً قمح الخبز، وتكون حبوبه حمراء، أو كهرمانيّة (بنّية مائلة إلى الاصفرار)، أو بيضاء، أو بنفسجية، أو زرقاء اللّون. وتختلف في قوامها من صلد إلى رخو. ويشمل القمح العادي القمح الشتوي والرّبيعي.

### دقيق القمح

الدقيق هو المادة الناعمة المطحونة التي نحصل عليها من طحن الحبوب، خصوصاً القمح، ويستخدم لإعداد الخبز. وهناك ثلاثة أنواع من دقيق القمح الأبيض: دقيق الخبز، ودقيق الكعك، والدقيق المتعدد الأغراض. وتختلف أنواع الدقيق الثلاثة من حيث نسبة البروتين في كل منها؛ فدقيق الخبز يمكن أن يحتوي على ١١٪ بروتين، ودقيق الكعك يحتوي على أقل من ٨٪ بروتين، بينما يحتوي الدقيق المتعدد الأغراض، الذي هو في الحقيقة مخلوط من دقيق الخبز ودقيق الكعك، على نحو ١٠٪ بروتين. وعندما يضاف الماء إلى العجين تتكون مادة لزجة تسمى الجلوتين، تتفاعل جيداً مع الخميرة؛ مما يؤدي إلى اختمار العجين، وزيادة حجم الرغيف وارتفاعه.

وتمثل حبة القمح المادة الخام للدقيق، وتتكون من غطاء صلب يسمى القشرة (النخالة)، وجزء طري داخلي منتفخ يسمى السويداء (الإندوسبرم)، وجزء صغير يمثل النبات الجديد يسمى الجنين. ولصنع الدقيق الأبيض، يقوم الطحّانون بفصل السويداء عن القشرة والجنين، ثم يتم طحن السويداء إلى دقيق ناعم. ويكون لون دقيق القمح الطازج بعد خروجه من الطاحونة مثل لون القشدة، وبعض المطاحن تقوم بجعل لونه أبيض، وقد تضيف له مواد كيماوية لتقوية جلوتين القمح.

والقمح غنيّ بالنشا، والبروتين، ومجموعة فيتامينات (ب)، وبعض العناصر؛ مثل: الحديد، والفوسفور. ولكن الفيتامينات وبعض العناصر تكون موجودة أساساً في النخالة الخارجية للحبة والجنين، وهي الأجزاء التي تُزال في أثناء الطحن لإنتاج الدقيق الأبيض. وقد يقوم بعض المنتجين بتدعيم الدقيق بإضافة الحديد والفيتامينات إليه. ومن المحتمل أن يكون تدعيم دقيق القمح الأبيض ببعض أنواع الفيتامينات قد ساعد ملايين من الأفراد على تجنب أمراض سوء التغذية قبل منتصف القرن العشرين.

وتاريخياً، استخدم قدماء الإغريق والرومان طواحين الماء لطحن الحبوب وإنتاج الدقيق الناعم. وفي القرن الميلادي الحادي عشر، بدأ الأوربيون في طحن الحبوب بين صخرتين كبيرتين ومسطحتين فيما يُعرف بالمطاحن الحجرية. وبعد ذلك، بدأ الإنسان يستخدم الحيوانات الأليفة أو مجموعات من الرقيق لإدارة الحجر الصخري العلوي لطحن الحبوب. وفي القرن الثاني عشر الميلادي، تم استخدام طواحين الهواء في أوربا لطحن الحبوب. وفي عام ١٧٨٠م، قام المهندس الأسكتلندي جيمس واط بإنشاء أول طاحونة دقيق تُدار بالبخار. وفي نهاية القرن التاسع عشر، تم استبدال الأسطوانات المعدنية في كثير من المطاحن في أوربا وأمريكا بطاحونة الحجارة. أما في بداية القرن العشرين، فإن التشغيل الآلي جعل من مطاحن الدقيق وحدات أكثر إنتاجاً من أيّ وقت سابق. وحالياً يصل إنتاج العالم من دقيق القمح إلى نحو ١١٠ ملايين طن متري.

### الخميرة وتأثيرها

الخميرة مادة تؤدي إلى تخمر العجين في أثناء صنع الخبز؛ مما يجعله أكبر حجماً، وأجمل شكلاً، وهي كائنات حية دقيقة تتكاثر بطريقة الانقسام. ولأن الخميرة تعتمد في عملها على السكر، يتم إضافة القليل منه إلى العجين لتسريع عملية التخمير؛ إذ تعمل إنزيمات الخميرة على تحويل السكر إلى كحول وغاز ثاني أكسيد الكربون، وتُحتجز فقّاعات غاز ثاني أكسيد الكربون في مركّب يحتوي عليه العجين يسمى الجلوتين. ومع تمدّد الغاز، فإن الجلوتين يتمدد ويسبب ارتفاع العجينة إلى أعلى. ويتبخّر الكحول الناتج في أثناء عملية التخمر بفعل الحرارة في أثناء الخبيز، وكذلك فإن حرارة الخبيز تُكسّر خلايا الخميرة، وهذا الأمر يزيد من حجم العجين، ويصبح جاهزاً للتقطيع والخبز.

وقبل الإنتاج الصناعي للخميرة في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، كان الناس يقومون بإعداد العجينة وتركها في الهواء من دون غطاء حتى تهبط عليها الخميرة الموجودة في ذرّات الهواء وتبدأ عملية التخمر. وفيما بعد، تم استخدام الخميرة الزائدة عن احتياجات صناعة البيرة والنبيذ في صناعة الخبز، وكانت هذه الخميرة تسمى (خميرة البيرة). وحينما تحوّل إنتاج خميرة الخبز إلى صناعة اعتمد المنتجون في إنتاجها على الحبوب، وتكون على شكل أقراص لينة وطرية الملمس، أو على هيئة حبيبات جافة.

أنواع الخبز

هناك عدة أنواع من الخبز: إذ تختلف أسماؤه وأشكاله وطعمه حسب محتوياته وطريقة خبزه. وأهم هذه الأنواع:

- الخبز المفرود: وهو الأكثر انتشاراً وشهرةً في الدول العربية، ويحتوي على الخميرة التي تجعله منفوخاً، ويصنع من دقيق القمح الأبيض أو الأسمر، وغالباً ما يتم عمله في البيوت باليد، ويُخبز في فرن مرتفع الحرارة، يعمل بالغاز أو الكهرباء أو الحطب. أما في المخابز التجارية، فيخبز في أفران كهربائية غالباً.
- خبز الصاج أو الشراك: وهو الخبز المصنوع من دقيق القمح أو الشعير، ويُخبز على صاج حديدي خاص، ولا يخمّر مثل الخبز المفرود. ورغيفه رقيق ودائري الشكل. ويصل قطره إلى نحو ٥٠ سنتيمتراً أو أكثر بقليل، وهو شديد التأثر بالهواء؛ لذلك يفضل أكله ساخناً أو تبريده وحفظه فوراً داخل كيس بلاستيكي أو ورقي.
- خبز الملة: وهو قطعة من العجين اليابس نسبياً، تُعمل على شكل قرص بسمك عدة سنتيمترات. ثم يُوضع هذا القرص ويدفن في الرمضاء، وهي الرماد الحار، مع شيء من الجمر، ويترك حتى ينضج، ثم يُخرج وينفض عنه بقايا الرماد. وهذا النوع من الخبز منتشر بين سكان البادية كثيراً.
- الخبز الأفغاني: وهو معروف في الإمارات ودول الخليج. ويُصنع من





دقيق القمح الأبيض، ويُخبز داخل فرن أسطواني الشكل يكون أشبه بالحفرة، حيث توضع الأرغفة على جدران الفرن حتى تنضج.

- خبز الطابون: وهو منتشر في فلسطين والأردن، ويكون من دقيق القمح الأبيض والأسمر، ويوضع في فرن مصنوع من الحجارة العادية مسقوف بعصيّ ضخمة من فروع الزيتون وفوقها الطين لمنع تسرّب مياه المطر. وفي وسط أرضية الفرن تعمل حفرة غير عميقة، يوضع فيها قدر كافٍ من الحصى المستديرة المصقولة، التي توقد عليها أو تحتها النار حتى تصبح شديدة الحرارة، ثم يوضع فوقها الرغيف حتى ينضج.

## قيمة الخبز الغذائية

الخبز من حيث نوع الدقيق المستخدم في صناعته نوعان: أبيض، وأسمر. الخبز الأبيض يمدّنا بكميات كبيرة من البروتينات، والكربوهيدرات، والحديد، إضافةً إلى الفيتامينات التي تضاف إليه لرفع قيمته الغذائية. أما الخبز الأسمر، فيوفّر لنا جميع الفيتامينات، والمعادن الطبيعية الموجودة في القمح، بما في ذلك النياسين، والريبوفلافين، والثيامين، وفيتامين (أ)، والحديد، والكالسيوم، والألياف.

وكل ١٠٠ غرام من الخبز الأبيض تمدّنا بنحو ٣٢٥ سعراً حرارياً، مقابل ٣١٥ سعراً حرارياً في الخبز الأسمر. وتحتوي الكمية ذاتها على ١٤ غرام بروتين في الخبز الأسمر، و٨,٢ غرامات بروتين في الخبز الأبيض. ويتفوق أيضاً الخبز الأسمر على الأبيض في نسبة احتوائه على الفسفور والكالسيوم والحديد والزنك والألياف؛ إذ يحتوي على ٣٤٥ مليغرام فسفور، و٣٧ مليغرام كالسيوم، و٦,٢ مليغرامات حديد، و٤,٥ مليغرامات زنك، و١١,٢ غرام ألياف، في حين يحتوي الخبز الأبيض على ٩١ مليغرام فسفور، و١٠,٥ مليغرامات كالسيوم، و١,٥ مليغرام حديد، و٠,٨ مليغرام زنك، و٢,٢ غرام ألياف. وبسبب احتواء الخبز الأسمر على نسبة أعلى من الألياف، فإنه يُشبع الإنسان أكثر من الخبز الأبيض؛ مما يساعد على عدم زيادة الوزن نتيجة تناول كميات أكبر من الخبز. إلا أن مشكلة الخبز الأسمر تكمن في حاجته إلى المضغ جيداً قبل البلع؛ بسبب وجود الألياف فيه.

وإضافةً إلى قيمته الغذائية العالية، فالخبز عموماً مفيد جداً للعقل؛ إذ أكد الدكتور يورجين ميشائيل برومر - الذي عمل محاضراً في كلية التغذية بجامعة ديتمولد الألمانية، ويشغل حالياً رئاسة الجمعية الاتحادية لصناعة الخبز ومشتقاته - أن الخبز يكسب العقل قوة الذاكرة، ويساعد الإنسان على الهدوء والتزام الحكمة، ومن ثَمّ رجاحة العقل، مضيفاً أن العرب الأوائل كانوا على درجة كبيرة من الرجاحة والاتزان بسبب تناولهم الخبز والحليب.

## المراجع


١- القمح المبرعم ومنافعه، حسن عباس، نشر خاص، ٢٠٠١م.
٢- الموسوعة العربية العالمية على الإنترنت.
٣- تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام، علي محمد معطي، دار المنهل اللبناني - بيروت، ٢٠٠٣م.
٤- فن تحضير الخبز على أنواعه، أنجيلا أليس، الدار العربية للعلوم - بيروت، ١٩٩٨م.




## خادم الحرمين الشريفين

# رعى حفل توزيع جائزة الملك فيصل العالمية



تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، أقيم في مساء يوم السبت الأول من ربيع الآخر سنة ١٤٣٠هـ (٢٨ مارس عام ٢٠٠٩م) حفل توزيع جائزة الملك فيصل العالمية على الفائزين بها لهذا العام، وذلك في قاعة الأمير سلطان الكبرى في مركز الفيصلية.

وشهد الاحتفال الأمير نايف بن عبدالعزيز - النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية - والأمير خالد الفيصل ابن عبدالعزيز - أمير منطقة مكة المكرمة، والمدير العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية، ورئيس هيئة جائزة الملك فيصل العالمية - والأمير بندر بن فهد بن خالد، والأمير بندر الفيصل بن عبدالعزيز، والأمير تركي الفيصل بن عبدالعزيز - رئيس مجلس إدارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - والأمير عبدالرحمن بن عبدالله الفيصل.

وألقى الأمير خالد الفيصل كلمة قال فيها: «سيدي خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز .

أصحاب السمو الأمراء، أصحاب الفضيلة، أصحاب المعالي حضرات الفائزين، الحفل الكريم . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في هذا المساء الذي يزهو بجلال الرعاية، وسمو الحضور، ورقي المناسبة، يعتلي فارس التطوير والإصلاح صهوة الثقافة، ويصطحب معه الفكر والعلم إلى منصة التقدير ومنبر التكريم.

## الأمير خالد الفيصل:
## لو سار الناس مسارك ونهجوا نهجك ما اختلفوا ولا تخلفوا

لك الله ياعبدالله كم أنت رائع وأنت تدعو إلى التفاهم والحوار والتآخي بالوفاق والتسامح بالأخلاق، لو سار الناس مسارك ونهجوا نهجك ما اختلفوا ولا تخلفوا.

أيها الفائزون..

منا لكم الشكر ولعقولكم الاحترام، كيف لا وقد بذلتم جهدكم، وسخرتم وقتكم ومنحتم سني عمركم لخدمة الإنسانية وإسعاد البشرية .

أحباءنا الحاضرين قبولكم دعوتنا إعلان رضا نعتز به شكراً لكم.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقد تولى الأمين العام للجائزة الدكتور عبدالله العثيمين إعلان الفائزين بها، وألقى كل واحد منهم كلمة عبر بها عن سعادته بالفوز بهذه الجائزة القيمة.

ومنحت جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام هذا العام (١٤٢٩هـ/٢٠٠٩م)، **للجمعية الشرعية الرئيسية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية**، وهي جمعية مصرية. وذلك لقيامها بأعمال جليلة في خدمة الإسلام والمسلمين.

ومن هذه الأعمال: عملها الدؤوب، منذ إنشائها قبل مئة عام تقريباً، على ترسيخ مفهوم الدعوة إلى الله بأن تكون خالصة لوجهه الكريم بعيدة عن أي مطامع سياسية، واعتمادها في دعوتها على الكتاب والسنة؛ وذلك لنشر الوعي الإسلامي الصحيح، وبيان مساوي البدع والخرافات، ومشاركة علمائها في المؤتمرات والندوات الإسلامية، وإقامة الندوات، وإقامة موقع على شبكة المعلومات لنشر الفكر الإسلامي الصحيح. وإعداد الدعاة من خلال أكثر من خمسين معهداً، ورعاية الطلاب؛ ولا سيما الفقراء، من داخل مصر ومن الوافدين من خارجها لطلب العلم في الأزهر، والتصدّي فكرياً وميدانياً للحملات المغرضة ضد الإسلام والمسلمين، والقيام بمشروعات اجتماعية في مصر وخارجها وبخاصة في فلسطين والدول الإسلامية الفقيرة في إفريقية وآسيا.

وتسلم الجائزة ممثلاً للجمعية البروفيسور محمد المختار محمد المهدي، الذي قال: إن الجميع في هذا الحفل المهيب يستروح عبق الإيمان والوفاء بتكريم العلماء وتقدير التفوق بكرم وسخاء، حيث تتلاقح فيه الأفكار المبدعة وتتكامل الجهود المخلصة والتجارب العلمية والعملية النافعة؛ وصولاً إلى النهضة الراشدة، تحت مظلة جائزة معطّرة باسم الملك فيصل بن عبد العزيز طيَّب الله ثراه.

وأعلن عن تنازل الجمعية الشرعية عن القيمة المادية لهذه الجائزة العظيمة للشعب الفلسطيني الأبي؛ سائلاً الله له الوحدة والعزة والتمكين، معاهدًا الله أن يكون هذا التكريم حافزًا لهم إلى مضاعفة الجهد والاستمرار في العطاء على طريق البر والوفاء.

ومنحت جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية وموضوعها «الدراسات التي تناولت الفكر العمراني البشري عند علماء المسلمين»، **للبروفيسور عبد السلام محمد شدادي** (المغربي الجنسية(، الأستاذ بالمعهد الجامعي للبحث العلمي، بجامعة محمد الخامس، في الرباط.

وقد منح الجائزة تقديراً لجهوده العلمية على مدى سنوات طويلة في دراسة ابن خلدون نموذجاً للفكر العمراني البشري عند المسلمين، موضحاً مرتكزاته ومضامينه ومصطلحاته وأقسامه، فقدم عملاً متميزاً بالتنوع المعرفي الرصين، وأغنى دراساته بالمقارنة مع النظريات الاجتماعية الحديثة.

وأوضح د.شدادي في كلمته أن الاختيار الذي وقع هذه السنة على موضوع العمران البشري في الثقافة العربية يعزِّز ويوطِّد الرمزية التي تتجسَّد في هذه الجائزة، ويدرجها في قلب الراهنية العالمية؛ مشيرًا إلى أن العالم اليوم في طور البحث عن مُثُل عُليا مشترَكة بوسعها أن توحِّد البشر، مثل عُليا حضارية تفتح أمامهم آفاقاً جديدة من أجل السلام، والوفاق، والحرية، والإبداع.

وفاز بجائزة الملك فيصل العالمية للغة العربية والأدب وموضوعها «تحقيق المؤلفات الأدبية الشعرية والنثرية المصنّفة في المدة من ٣٠٠

- ٧٠٠هـ»: **للبروفيسور عبد العزيز بن ناصر المانع** (السعودي الجنسية). الأستاذ غير المتفرغ بكلية الآداب بجامعة الملك سعود، وقد منح الجائزة تقديراً لجهوده العلمية المتميزة في مجال تحقيق نصوص من التراث في المدة المحددة لموضوع الجائزة؛ إذ برهن على إلمام واسع بمصادر مختلفة ومتنوعة أحسن توظيفها في تحقيق عدد من المؤلفات التراثية المهمة وضبطها وإجلاء غوامضها، متبعاً في ذلك المناهج العلمية الدقيقة في مجال صنعة التحقيق.

وعدّ البروفيسور المانع تشريفه بمنحه جائزة الملك فيصل العالمية في اللغة العربية والأدب ليس تشريفاً له فحسب، بل تشريفًا للتراث العربي الخالد، ولكل من يعمل على إحيائه.

وقال: إن نشر هذا التراث مُحَّققاً تحقيقاً علمياً، وطبعَهُ، وتهيئتَهُ للدارسين والباحثين يُعد الوسيلة الوحيدة للتواصل معه، ومن دون ذلك تنقطع صلتنا بعلومنا المعرفية على اختلافها من فقه، وأدب، ولغة، وتاريخ، وعلوم طبيعية.

ومنحت جائزة الملك فيصل العالمية للطب وموضوعها «العلاج الموجه إلى الجزيئات»: **للبروفيسور رونالد ليفي** (الأمريكي الجنسية) - رئيس قسم الأورام بكلية الطب في جامعة ستانفورد - وذلك لدراساته الرائدة والمتميزة في مجال العلاج المناعي للسرطان. إذ اكتشف منذ ثلاثين عامًا أجسامًا مضادة تستطيع أن تميز بين الخلايا السرطانية وخلايا الأورام الحميدة، وأدى هذا الاكتشاف إلى إيجاد وسيلة فاعلة لتشخيص علاج الأورام اللمفاوية.

وعبر البروفيسور رونالد ليفي عن تشرفه بقبول هذه الجائزة التي منحته إياه مؤسسة الملك فيصل، ويشاركه فيها علماء سابقون إضافة إلى كثير من الأطباء المخلصين الذين يقومون بعلاج مرضى السرطان، ويساعدون على إيصال العلاج الجديد إليهم.

وأشار إلى حلم الجميع وتطلعهم إلى علاج ناجع للسرطان: مبينًا أنه قام بهذا الخصوص بخطوة تهدف إلي تحسين حياة المصابين بالسرطان؛ إذ تم استخدام نظام المناعة أداة للقضاء على السرطان، وأصبح العلاج الذي تم التوصل إليه مطبّقاً في جميع أنحاء العالم، وأمكن بواسطته علاج أكثر من مليون شخص لا يزال الكثيرون منهم على قيد الحياة بعد شفائهم من ذلك الداء.

ونال جائزة الملك فيصل العالمية للعلوم وموضوعها «الفيزياء»: **البروفيسور السير ريتشارد هنري فريند** (البريطاني الجنسية) - أستاذ كرسي كافنديش في الفيزياء بجامعة كمبردج، ورئيس



البروفيسور عبد السلام محمد شدادي — البروفيسور عبد العزيز بن ناصر المانع — البروفيسور رونالد ليفي

مجلس العلوم الطبيعية - **والبروفيسور راشد عليفتش سنييف** (الروسي الجنسية، و العالم الرئيس في معهد أبحاث الفضاء في الأكاديمية الروسية للعلوم، ومدير معهد ماكس بلانك للفيزياء الفلكية في ألمانيا).

وقد أنجز البروفيسور فريند عملاً رائداً في مجال فيزياء وهندسة الأجهزة شبه الموصلة المصنّعة من مواد بلاستيكية، واستحدث تقنية لتصنيع هذه الأجهزة عن طريق الطباعة المباشرة تختلف اختلافاً جذريا عن تقنيات التصنيع التقليدية، ممهداً بذلك الطريق لتطوير تطبيقات كثيرة للأجهزة البلاستيكية.

وأسهم البروفيسور سنييف بعمل رائد في مجال الفيزياء الفلكية، إذ سمحت أبحاثه النظرية حول خلفية الإشعاع الكوني بتأسيس قاعدة للمشاهدات الفلكية، واستكشاف بنية الكون والمجرات؛ إذ يعد عمله المتعلق بالثقوب السوداء والنجوم الثنائية حاسمًا في تطوير مجال الأشعة السينية الكونية.

وأكد البروفيسور فريند أن الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية في العلوم يشكلون مجموعة فذة من العلماء المبدعين، وقال: ظللت أتابع مسيرة الجائزة من كثب خلال السنوات الماضية، وأكثر ما لفت انتباهي أنها كانت - في كثير من الأحيان - تسبق غيرها من الجوائز إلى تكريم أولئك العلماء الأفذاذ، مما جعلني أكنُّ تقديراً عظيماً للجان الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية، وثقة بقدرتها على الحكم.

وبيّن البروفيسور سنييف أن هذه الجائزة لها مدلول خاص بالنسبة إليه حيث تجيء من منطقة قادت العالم كله - عدة قرون - في مضمار العلوم الفلكية، واستطاع العلماء في زمن الخلافة العربية الإفادة من المعارف القديمة وإثرائها باكتشافاتهم العظيمة.

وقال: إن معظم النجوم ذات الخصائص الفريدة والتنوُّع الشديد التي كانت وما زالت، تثير اهتمام الفلكيين، وكذلك معظم النجوم الساطعة تحمل أسماء عربية لافتا النظر إلى أن العلماء الأوربيون كانوا في عهد النهضة يتعلّمون الرياضيات والفيزياء من الكتب العربية التي تّرجموها إلى لغاتهم، وامتد ذلك التراث العلمي من قرطبة وغرناطة إلى بلاد فارس والهند. وأثَر في تطوُّر علم الفلك في آسيا الوسطى : وبخاصة في سمرقند، التي لا تبعد كثيراً عن طشقند التي ولد وتعلم فيها.



البروفيسور السير ريتشارد هنري فريند - البروفيسور راشد عليفتش سنييف



## مكتبة الملك عبد العزيز تقتني عملات إسلامية نادرة

اقتنت مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض مؤخراً مجموعة متميزة من العملات الإسلامية النـادرة، التى جرى صكها في أقاليم الجزيرة العربية في العصور الإسلامية وفي أقاليم الدول الإسلامية الأخرى.

وتعد القطع على اختلاف أنواعها من النقود الإسلامية التى تتسم بالندرة العالمية، بل إن بعض هذه القطع لا يوجد لها مثيل الآن.

ومن بين هذه القطع درهم عباسي جرى صكه في مدينة البصرة سنة ١٤٠هـ، في عهد الخليفة أبيجعفر المنصور، ويتميز هذا الدرهم من سواه من دراهم الخليفة المنصور بصفة عامة، والدراهم العباسية المضروبة في مدينة البصرة بوجود كلمة (عبد) أسفل كتابات مركز الوجه، وهي كلمة لم يسبق أن ظهرت على دراهم هذا الخليفة من قبل.

وتشتمل المكتبة على قطع نادرة أخرى، مثل: «الدينار الذهبي الأموي الذي يعود إلى مرحلة التعريب، والذي جرى سكه سنة ٧٢هـ. كما تشتمل على الدرهم العربي الساساني المضروب في دمشق سنة ٧٥هـ. إضافة إلى النقود الإسلامية الأخرى التي تعود إلى عهود الأسر الحاكمة، إضافة إلى نقود مهمة تعود إلى دول حكمت أجزاء من العالم الإسلامي مثل الدولة الطولونية والحمدانية والإخشيدية والأموية الأندلسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية، إضافة إلى دول مشرق العالم الإسلامي، كالدولة الصفارية والسامانية والبويهية والغزنوية والسلجوقية والمغولية والصفوية وغيرها.

وقد جرى تصنيف مجموعة العملات الإسلامية المحفوظة في المكتبة وفهرستها بالطرائق العلمية المتبعة في تصنيف المجموعات العالمية، وهي متاحة للباحثين.



## كتاب الحضارة العربية والإسلامية عبر العصور يرصد تاريخ المملكة

أصدرت مؤسسة التراث مؤخرًا كتاب (الحضارة العربية والإسلامية عبر العصور في المملكة العربية السعودية)، الذي ألفه الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري بمشاركة عدد من المختصين في تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها. ويعد الكتاب رصدًا وتوثيقًا لأبرز مظاهر الحضارة العربية والإسلامية التي مرت بها أراضي المملكة العربية السعودية في مختلف العصور، وهو يشتمل على معلومات تاريخية ثرية مع صور وخرائط نادرة، مما يجعله مرجعًا تاريخيًا مهمًا للباحثين والمهتمين بتاريخ الجزيرة العربية عامة والمملكة العربية السعودية على وجه الخصوص. وكانت مؤسسة التراث التي يرأسها صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز قد أصدرت سلسلة من الكتب ذات الأبعاد الحضارية التي تتناول جوانب مشرقة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ومن ثم تاريخ المملكة وتأثيرها الحضاري في مختلف العهود.

## لمى آل غالب تمثل السعودية في قمة الشباب

وقع اختيار المجلس الثقافي البريطاني على الطالبة والناشطة في كلية دار الحكمة لمى آل غالب لتمثل السعودية في اجتماع قمة القادة العالميين الشباب، الذي تعقد أول مرة، ويشارك فيها ١٥٠ شاباً وشابة من مختلف أنحاء العالم، وذلك في المدة من ١٣ إلى ١٧ مايو/أيار الجاري، بالتزامن مع المنتدى الاقتصادي العالمي الذي سيقام في الأردن تحت شعار «آثار الأزمة الاقتصادية العالمية في الشرق الأوسط، إستراتيجيات نابعة من الداخل للنجاح» بمشاركة أكثر من ألف شخص من قادة الأعمال والسياسة وممثلي مؤسسات المجتمع المدني.

وتم اختيار لمى آل غالب لنشاطها في العمل العام، إذ شاركت ضمن وفد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز إلى بريطانيا في العام الماضي، كما كانت من أصغر المشاركين في مؤتمر الأمم المتحدة لحوار الأديان الذي أقيم في نيويورك، وشاركت في المنتدى السعودي البريطاني للشباب في يناير الماضي، وهي حاصلة على دبلوم في العلاقات الدولية والدبلوماسية من الولايات المتحدة.

## هيئة الصحفيين السعوديين تتصدى لحملة التشكيك ضد الإعلاميات

تناول مجلس إدارة هيئة الصحفيين السعوديين في اجتماع عقده مؤخرًا بمقر الهيئة بالرياض برئاسة الأستاذ تركي بن عبدالله السديري وحضور جميع أعضاء المجلس حملة التجريح والتشكيك الموجهة لعدد من الإعلاميات ،وتوجيه بعض التهم غير المعقولة وغير المستندة إلى دليل، ومن ذلك الدعاوى المرفوعة من بعض الإعلاميات لعدد من الجهات، ومنها هيئة الصحفيين السعوديين تجاه بعض من كتبوا في المواقع الإلكترونية التي استغلت حرية النشر الإلكتروني للتشهير والقذف والإساءة للأشخاص والمجتمع.

وأكد المجلس التزام الهيئة حماية المهنة الصحفية والعاملين فيها، وفي الوقت نفسه أكد ضرورة التزام القائمين على الصحف والمواقع الإلكترونية التقيد بقواعد النشر وأخلاقياته، وتحميلهم المسؤولية القانونية والمهنية تجاه ما ينشر لديهم، وفقاً لأنظمة مكافحة الجرائم المعلوماتية، ونظام المطبوعات والنشر، وجرائم التشهير والقذف، وستدعم الهيئة الإعلاميين والإعلاميات في مقاضاة أصحاب هذه المواقع المسيئة.

وأكد المجلس حرص الهيئة على الوقوف بحزم تجاه من يحاول تشويه صورة الإعلاميين والإعلاميات في المجتمع.

وناقش المجلس متابعة أوضاع بعض الصحفيين الذين تعرضوا لفصل تعسفي، وتم الاتفاق على مخاطبة الجهات المعنية لتوضيح وجهة نظرها؛ تمهيداً لاستكمال الرؤية العامة تجاه هذه الأوضاع، واتخاذ الإجراءات التي تحفظ للصحفي حقوقه وفقاً للأنظمة.

كما وافق المجلس على إقرار التصور الخاص بإنشاء الشبكة المحلية الإلكترونية لمبنى الهيئة، وترسية المشروع على إحدى المؤسسات الوطنية المتخصصة.

وناقش المجلس –أيضًا- بعض الإجـراءات الخاصة بتنظيم العضوية في الهيئة، وقد أحيلت إلى لجنة شؤون العضوية لاستكمال الإجراءات اللازمة للعمل بهذا التنظيم.

وأقر المجلس عدداً من الصلاحيات للأمين العام للهيئة ومساعده لتسهيل إجراءات العمل بالهيئة وتسريعها. كما شكل المجلس لجنة تنفيذية من كل من الأمين العام ومساعده والأساتذة: محمد الوعيل، وخالد دراج وعبدالعزيز العيد، ونورة الحويتي، وولاء حواري؛ وذلك لإعداد التصور النهائي لأعمال اللجان المتخصصة في الهيئة، وعرضه على مجلس الإدارة في اجتماعه المقبل لإقراره.



# الجودة

## سبيل تنافُس المتنافسين



أبو بكر سلطان أحمد

الرياض - السعودية

عجائب الدنيا القديمة السبع هي: هرم خوفو، والحدائق المعلقة، وتمثال زيوس، وهيكل آرتميس، وضريح موسولوس، وتمثال عملاق رودوس، ومنارة (أو فنار) الإسكندرية. وهرم الملك خوفو هو أكبر الأهرامات الثلاثة، والاثنان الآخران بجواره أصغر؛ أحدهما هرم الملك خفرع، والثاني الأصغر هرم الملك منقرع. وهرم خوفو هو إحدى العجائب المعمارية والهندسية السبع في العصور القديمة وأشهرها؛ لأنه الباقي الوحيد منها حتى الآن لمدة تقترب من نحو ٤٦٠٠ عام محافظاً على إتقان تنفيذه كمشروع متعدّد الجوانب، وما يحمل في غضونه من هندسة ومعادلات رياضية وفلك، خصوصاً أنه لم يكن هناك وقتها آلات ولا رافعات ولا حاسبات. وكان الهدف الرئيس من بناء الأهرامات ديني كمقبرة للملك إلى حين عودته بعد الممات إلى الحياة الثانية كما كانوا يعتقدون.





هرم خوخو أشهر عجائب الدنيا الباقي الوحيد منذ ٤٦٠٠ عاماً



منارة الإسكندرية أول منارة في العالم، وأُنشئت عام ٢٨٠ ق. م. في عصر بطليموس الثاني، وقد بناها سوستراتوس البطلمي، وكان طولها مئةً وعشرين متراً

ويعود بناء هرم خوفو الأكبر إلى المدة (٢٥٨٤-٢٥٦١) قبل الميلاد، وبناه خوفو أحد فراعنة قدماء المصريين على هضبة الجيزة في مصر. أما الأعجوبة الثانية (الحدائق المعلّقة)، فقد بناها نبوخذ نصر الثاني البابلي في المدة من (٦٠٥-٥٦٢) قبل الميلاد في مدينة بابل على نهر الفرات في العراق الحالي، ولكن دمّرها زلزال في القرن الأول قبل الميلاد خلال المدة من (٤٦٦-٤٥٦) قبل الميلاد. وكان بناء الأعجوبة الثالثة (هيكل آرتميس) عام ٥٥٠ قبل الميلاد بأمر من كروسوس ملك ليديا في مدينة إفسوس في تركيا الحالية، لكن قامت قبائل القوط بهدمه عام ٢٦٢ قبل الميلاد. وقام ليبون الإغريقي ببناء الأعجوبة الرابعة (تمثال زيوس) خلال المدة من (٤٦٦-٤٥٦) قبل الميلاد في مدينة أولومبيا في اليونان، ولكن فني بين القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد

الحدائق المعلقة





لأسباب مجهولة. ويعدّ ضريح موسولوس الأعجوبة الخامسة، وبناه موسولوس ملك الكاريون عام ٣٥١ قبل الميلاد في بودروم في تركيا. واشترك الصليبيون وزلزال في القضاء عليه حتى تم فناؤه عام ١٤٩٤ قبل الميلاد. وقام سكان جزيرة رودس الإغريق ببناء الأعجوبة السادسة (تمثال عملاق رودوس) خلال المدة من (٢٩٢-٢٨٠) قبل الميلاد في جزيرة رودوس في اليونان، وقضى عليه زلزال عام ٢٢٦ قبل الميلاد. أما الأعجوبة السابعة (منارة الإسكندرية)، فقد بناها سوستراتوس البطلمي في عهد بطليموس الثاني في مدينة الإسكندرية في مصر عام ٢٨٠ قبل الميلاد. وتعدّ منارة الإسكندرية أول منارة في العالم. وكان طولها مئةً وعشرين متراً؛ مما جعلها أعلى بنايةٍ في عصرها. وكان الفنار يتألّف من أربعة أقسام: الأول قاعدة مربّعة الشكل، يفتح فيها عدد من النوافذ، وبها نحو ٣٠٠ غرفة مجهّزة لسكنى الفنيين القائمين على تشغيل الفنار وأُسرهم. أما الطابق الثاني، فكان مُثمّن الأضلاع، والثالث دائرياً. وأخيراً تأتي قمة الفنار، حيث يستقر الفانوس مصدر الإضاءة في المنارة ويعلوه تمثال لإيزيس. وقد حدث زلزال ١٣٠٣م في عهد سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون، فضرب شرق البحر المتوسط، ودمّر حصون الإسكندرية وأسوارها ومنارتها أيضاً.

أما تمثال عملاق رودوس في جزيرة رودوس باليونان، فهو تمثال ضخم لإله الشمس هليوس الذي كان يعبده اليونانيون الوثنيون. وقام النحّات اليوناني القديم في الحقبة من عام ٢٩٢ إلى عام ٢٨٠ قبل الميلاد بنحت التمثال العملاق من قاعدة كبيرة من الرخام الأبيض لوضع هيكل التمثال الحجري المملوء بسائل البرونز. واستغرق بناء التمثال نحو ١٢ عاماً، وظل منتصباً على مدخل الجزيرة لما يقرب من ٢٠٠ عام حتى هُدم بفعل زلزال مدمّر ضرب الجزيرة.

ويذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن زوجة الملك اليوناني القديم موزول هي التي شيّدت لزوجها ضريح موسولوس بعد وفاته في مدينة بودروم بتركيا عام ٢٢٥١ ق. م، وهو بناء مستطيل الشكل، ارتفاعه الكلي يبلغ نحو ٤٥ متراً، ويتكون من ثلاثة أجزاء. المستوى السفلي منه قاعة ضخمة من الرخام الأبيض، يليه المستوى الثاني الذي يوجد به ٣٦ عموداً موزّعةً على جميع أجزاء البناء، وتحمل تلك الأعمدة سقفاً على شكل هرم مدرّج تعلوه عربة فاخرة ذات أربعة جياد. وما يميّز الضريح هو النقوش البارزة، والزخارف

المنحوتة، والتماثيل المتفاوتة الأحجام على الأعمدة لبعض المعارك الأسطورية. كما يوجد بقاعدته دهليز يؤدي إلى غرفة فيها كثير من الكنوز والتحف الذهبية. وكانت عظام موزول ورفاته ملفوفةً في قماش مطرّز بالذهب وموضوعة داخل تابوت من الرخام الأبيض الفاخر. لكن يوجد الآن مسجد مكان الضريح.

وهيكل آرتميس هو معبد الإلهة اليونانية أرتميس في إفسوس بتركيا. وقد بُني الهيكل بكامله من الرخام باستثناء السقف الخشبي المغطّى بالقرميد عام ٥٥٠ ق. م. وتصل أبعاد أساسات المعبد إلى ١١٥ متراً × ٥٥ متراً، وبه أعمدة يصل ارتفاع الواحد منها إلى ١٢ متراً تنتظم في صفين حول قدس الأقداس الساحة الداخلية، ولا يوجد له بقايا الآن.

وزيوس هو كبير آلهة الإغريق القدماء الشهيرة، ويمثل القوة والبطولة. وتخليداً وتمجيداً لذلك الإله قرّر مجلس (الأولمبيا) بناء تمثال ضخم له في المدة من عام ٤٦٦ إلى عام ٤٥٦ قبل الميلاد في أولومبيا باليونان. وقام النحات بنحت التمثال من العاج الذي بلغ ارتفاعه فوق القاعدة أكثر من ١٣ متراً، بينما بلغ ارتفاع القاعدة نحو ٦ أمتار. وصنعت العباءة التي يرتديها التمثال من الذهب الخالص، أما القاعدة فكانت من الرخام الأسود. وتعدّ الأثر الوحيد المتبقي من أجزاء التمثال.

هناك شك في وجود حدائق بابل المعلقة، أو أنها معلقة فعلياً. وتقول المراجع: إن الذي بناها هو نبوخذ نصر الثاني في المدة من عام ٦٠٥ إلى عام ٥٦٢ ق. م، وكانت محاطة بخندق مائي في بابل بالعراق الحالي. وكانت بوابة عشتار أفخم البوابات الثمانية للحدائق المعلقة. وزُرعت فيها جميع أنواع الأشجار، والخضراوات، والفواكه، والأزهار، وكانت مثمرةً طوال العام بسبب وجود الأشجار الصيفية والشتوية، ووزّعت فيها التماثيل بأحجام مختلفة.

### هرم خوفو.. لغز أم جودة متفردة؟

أما الهرم الأكبر، فهو أكثر آثار العالم إثارةً للجدل والخيال، والوحيد من عجائب الدنيا السبع الباقي إلى الآن؛ مما جعل كثيرين يروجون كثيراً من الأساطير والروايات حوله. ويعدّ بناء هرم الملك خوفو كمقبرة له نقلةً حضاريةً كبرى، والمشروع القومي الأول في تاريخ مصر القديم، وهو أقدم مثال للجودة الشاملة سابق لمفهوم الجودة في العصر الحديث من ناحية ضخامة المشروع، ومعماره الفريد، وهندسته المتقدمة، والعلوم الراسخة وراءه، مع استمرارية هذه الجودة نحو ٤٦٠٠ عام على الرغم من عدم توافر الآلات والأدوات اللازمة الحديثة.

ويتبيّن من دراسة بناء الهرم الأكبر مدى معرفة قدماء المصريين الدقيقة حجم الكرة الأرضية، وعلم الفلك والنجوم والرياضيات، وعلوم المواد؛ مما ترتّب عليه تفوّق في الهندسة والإتقان، وأنهم أول من نشر هذه العلوم في برديات: مثل بردية (ريند)[١] عام ١٨٥٠ قبل الميلاد، بعنوان: «توجيهات لمعرفة الأمور الغامضة» لشرح كيفية حل المسائل الرياضية؛ مما دعا علماء قدماء الإغريق (مثل فيثاغورث) إلى التصريح بأن علومهم مأخوذة من علوم قدماء المصريين، خصوصاً أن مدينة الإسكندرية القديمة ومكتبتها، وما كانت تحويه من علوم قدماء المصريين، كانت مركز العالم الإغريقي بعد الإسكندر الأكبر. وأنه من المعلوم أن وضع قدماء المصريين بالنسبة إلى الإغريق مثل وضع الإغريق بالنسبة إلى عصرنا الآن من ناحية منابع العلم.

لم يكن مشروع بناء هرم خوفو بدائياً ولا عشوائياً، لكنه يحمل علاقات رياضية متقنة التنفيذ بجودة عالية في الإدارة والعمارة والهندسة. ولا يوجد بناء يضاهيه في كمّ النظريات والاعتقادات والانبهار والغموض والحقائق والاختلاف. ويقع الهرم الأكبر على الحافة الشمالية لهضبة الجيزة عند نقطة التقاء نهر النيل بدلتا النهر كما لاحظ علماء حملة نابليون الفرنسية عام ١٧٩٨م على خط الطول المركزي لمصر القديمة (٣١ درجة، و١٤٧ دقيقة شرق جرينتش) الذي يقسمها نصفين بدقة عالية. وبذلك يستطيع الفلاحون في الدلتا الاستعانة به عند إجراء الأعمال المساحية لحقولهم كل عام في أثناء الفيضان بجعل قمة الهرم مرجعاً لقياس فيضان النيل.

والأهم هو الدقة العالية والإتقان في بناء الهرم الأكبر، وعلاقاته

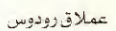
**بناء هرم الملك خوفو كمقبرة له نقلة حضارية كبرى، والمشروع القومي الأول في تاريخ مصر القديم، وهو أقدم مثال للجودة الشاملة**



هيكل آرتميس

تمثال زيوس

الرياضية، وإدارة مشروع عملاق من دون رافعات ولا أوناش ولا حاسب بجودة غير مسبوقة في زمانه، وحتى بمقاييس العصر الحديث: فقد استغرق بناء الهرم الأكبر (هرم الملك خوفو) ٢٠ عاماً، وظل صامداً نحو ٤٦٠٠ عام، ويبلغ وزنه الإجمالي أكثر من ٦ ملايين طن، وعدد أحجاره أكثر من ٢,٣ مليوني حجر، ويزن كل حجر منهم نحو ٢,٥ طنين ونصف الطن من الحجر الجيري من هضبة الجيزة، والجرانيت من أسوان على بعد ٩٤٣ كم جنوب الجيزة. ويتميز كل منهما بالصلابة، ومقاومة المياه. وبلغ عدد العمال نحو ١٠٠ ألف؛ أي أن العمال كانوا يضعون حجراً كل دقيقتين تقريباً من دون استخدام مواد أسمنتية أو مثلها. واعتمد مهندسو المشروع على تفريغ الهواء لتثبيت الأحجار بعضها مع بعض. وحديثاً، اكتشفت بعثة مشتركة من جامعة شيكاجو وهارفارد عام ٢٠٠٢م[٢] القرية التي كان يقيم بها عمال المشروع، فقد وجدوا هناك ثكنات ذات فتحات لدخول أشعة الشمس والتهوية تسع نحو ٢٠٠٠ عامل، بها سرائر من الطين بعرض نحو متر قليلة الانحدار من مكان الرأس إلى مكان القدمين كما كان القدماء يعتادون في نومهم. ويبدو أن هذه الثكنات كانت جزءاً من مجمع كبير يشمل مطابخ، وأفراناً للخبز، ومصانع، ومستشفى في



عملاق رودوس



الموقع نفسه. وعثر الباحثون على بقايا عظام أبقار وأوانٍ فخارية للجعة والخبز؛ لإطعام العمال بمستوى عالٍ. وبيّن فحص المومياوات أن العمال تلقوا علاجات طبية لعظام مكسورة، وبتر بعض الأطراف، حتى جراحات للدماغ. وتمّ اكتشاف قرية أخرى قريبة شرق هذه الثكنات، ويعتقد أن هذه القرية كانت مقرّ العمال المهرة، والفنانين لقطع الأحجار بدقة، والمهندسين، والمديرين، والمخطّطين الدائمين؛ كإدارة المشروع بين فريق دائم وعمال مؤقتين يتناوبون أعمال البناء الذين كانوا يقيمون في تلك الثكنات.

ويبلغ ارتفاع الهرم ١٤٦,٥١٥ متراً، وقاعدته ٢٣٠,٣٦٣ متراً، وزاوية ميل جانب الهرم ٥١,٨٢٧ درجة، وهي رياضياً تعدّ زاوية الراحة لمبنى الهرم التي إذا زادت أو قلّت قليلاً انهار المبنى تماماً. وتتطابق اتجاهات هذه الجوانب مع الجهات الرئيسة الأربع للبوصلة. أما عن الدقة، فمتوسط الخطأ في أطوال القاعدة لا يزيد على ٥٨ مم، وتفاوت القاعدة عن المربع الكامل لا يزيد على دقيقة، ومتوسط الخطأ في استواء القاعدة أقل من ١٥ مم. وزوايا القاعدة قائمة بخطأ يبلغ ٣ دقائق فقط عن ٩٠ درجة، ويبلغ محيط القاعدة ٣٦٥,٢٤ كيوبيت (وحدة قياس مصرية قديمة نحو ٥٢٣-٥٢٥ مم)[٢]، ويلاحظ أن هذا الرقم هو عدد أيام السنة، وأن واحداً أمامه ٩ أصفار ضرب ارتفاع الهرم هو المسافة بين الشمس والأرض المعروفة حديثاً، وأن حاصل قسمة نصف المحيط على ارتفاع الهرم هو النسبة التقريبية المعروفة حديثاً ٣,١٤١٦، وأن واحداً أمامه ١٥ صفراً ضرب وزن الهرم هو وزن الكرة الأرضية، وأن نسب أبعاد حجرة الملك داخل الهرم مطابقة لنسب أبعاد مثلث فيثاغورس، ونسبة الجانب المائل إلى نصف قاعدة الهرم (بزاوية الراحة المذكورة) تساوي ١ إلى ٠,٦١٨٠٣٤؛ أي: هي النسبة الذهبية.

### النسبة الذهبية في أبعاد هرم خوفو

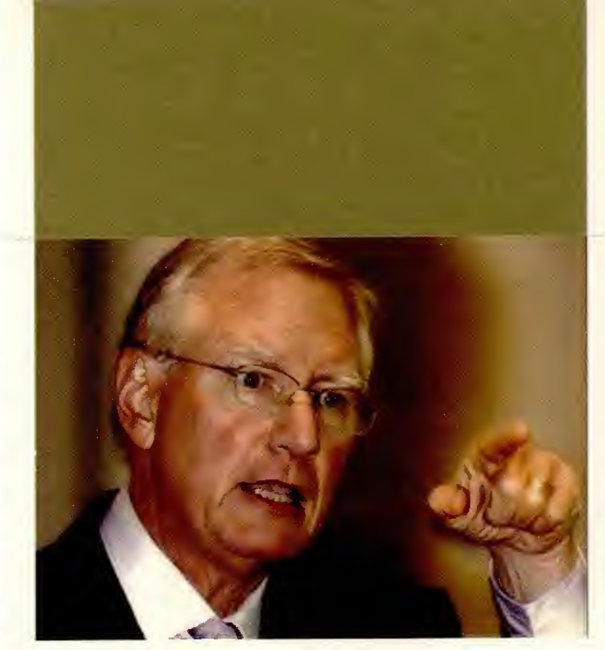
أدّى وجود النسبة الذهبية مع النسبة التقريبية في أبعاد الهرم إلى تحقّق زاوية الراحة التي كانت الأمثل لاستقراره. ويبدو أن مهندسي الهرم المصريين القدماء كانوا على دراية وافية بهذه النسبة الذهبية (أطلقوا عليها اسم النسبة المقدسة)، التي اكتشفها الرياضي الإيطالي فيبوناتشي حديثاً عام ١٢٠٢م في متتالية أُطلق عليها اسمه. بل استخدمها المصريون القدماء في أبعاد تماثيلهم ومعابدهم ورسوماتهم وأبجدية اللغة الهيروغليفية. وأول وهلة ظنّ علماء المصريات أن هناك خطأ في أمكنة الأهرام الثلاثة؛ إذ إن مواقعها ليست على خط مستقيم، لكن اتضح أن المواقع مائلة حسب حلزون متتالية فيبوناتشي.

وتوجد النسبة الذهبية في علاقة أبعاد القمر مع أبعاد الكرة الأرضية؛ إذ إن مساحة المربع المحيط بدائرة الكر الأرضية مساوٍ لمساحة الدائرة التي تشمل القمر والكرة الأرضية. وإذا وضعنا مثلث هرم خوفو داخل دائرة الكرة الأرضية، بحيث يتطابق قطر الأرض مع طول قاعدة الهرم، فإن نصف قطر القمر يكون هو حاصل طرح ارتفاع الهرم من نصف قطر الأرض.

وهذه النسبة الذهبية موجودة أيضاً في مخلوقات الله سبحانه وتعالى فنراها في وجه الإنسان، حيث يحيط الوجه مستطيل نسبة طوله إلى عرضه هي النسبة الذهبية، وكذلك موقع الأنف والفم بالنسبة إلى أسفل الذقن، ونراها في ذراع الإنسان حيث نسبة طول اليد إلى مجموع طول الساعد واليد هو أيضاً النسبة التقريبية، وفي أبعاد الأسنان والرئة، وتحتوي الأذن حلزون متتالية فيبوناتشي، واكتشفه ليونارد فينيتشي في أبعاد أجزاء جسم الإنسان بالنسبة

إدوارد ديمينج





توم بيترز

إلى أسفل القدمين عند إيجاده حلاً رياضياً لتربيع الدائرة عام ١٤٩٢م[٤]. ونجد النسبة الذهبية في نمو النبات والأزهار وأوراق الأناناس، وتوالد الحيوان، والنحل، والأصداف البحرية، والأسماك أيضاً، بل نجدها في متوسط مسافة مدار كل كوكب في المجموعة الشمسية عن الذي يسبقه. ويلاحظ أن عين الإنسان ترتاح إلى الأشكال التي تحمل النسبة الذهبية في أبعادها.

نستطيع القول: إن مشروع بناء هرم خوفو لم يكن أعمال سخرة، ولم يكن وراءه زوّار من الفضاء كما ادعى بعض الناس، ولكن كان مشروعاً قومياً هندسياً معمارياً علمياً متكاملاً جيد التخطيط، متقن التنفيذ، ويتّضح ذلك من اشتراك معظم الشعب المصري في المشروع في أثناء الفيضان بدافع ديني ذاتي، وإيمانه ببلده ورؤسائه، وإيمانه بالعمل الجماعي المنظّم، واعتماده على العلم من الناحية الهندسية والمعمارية وعلوم إدارة الأعمال والجودة. والقول بأن إدارة المشروعات بالجودة الشاملة بدأ على يد قدماء المصريين منذ نحو ٤٦٠٠ عام (عصر الأهرامات) ولم يعُدْ ثانيةً إلا في العصر الحديث، وتحديداً عام ١٩٢٠م، هو قول قريب من الصحة إلى حدّ كبير.

### تطوّر مفهوم الجودة في العصر الحديث

تميّزت الثورة الصناعية منذ بداية القرن التاسع عشر في إنجلترا بتبنّي مفهوم الجودة، لتمثّل انقطاعاً مع مفاهيم الاقتصاد الزراعي السابق الذي كان يعاني التناقص المستمر للعائد من الإنتاج مع تزايد عدد السكان، أو ما يسمى نظرية (تناقص الغلة)[٥]. لذلك كانت كل زيادة في الإنتاج تؤدي إلى ارتفاع مستوى المعيشة، الذي يؤدي بدوره إلى زيادة في عدد السكان تلتهم بدورها الزيادة في الإنتاج، فتصبح الأغلبية تعيش على حدّ الكفاف. ومن ناحية أخرى، أدّت الثورة الصناعية، وتبني مفهوم الجودة في الإنتاج، إلى تفوّق الغرب وسيطرته؛ بسبب الزيادة في الإنتاجية والفاعلية والتنافسية الاقتصادية والتقدم التقني في الإنتاج والجودة بمعدلات غير مسبوقة وسريعة لم تعرفها البشرية من قبل. وانقطع الربط بين زيادة الإنتاج وزيادة عدد السكان؛ مما حدا ببعض الاقتصاديين إلى الحديث عن نظرية جديدة (تزايد الغلة)، وأدى التقدم التقني وزيادة الإنتاجية ليس فقط إلى تحسّن مستوى المعيشة للأمم، بل إلى منظومة متكاملة من نظم قانونية واقتصادية وسلوك اجتماعي مع بنية أساسية من آداب مهنة، وتكامل، وثقة، وتعليم، وعمل جماعي، وقيادة، وتقدير، وتواصل، واحترام وقت، ودقة مواعيد، وتحمّل مسؤولية، وإتقان عمل. وانعكس هذا في ميدان السلم والحرب التي خاضها الغرب الاستعماري ضد العالم الثالث على حدّ سواء، وكان تفوّقه التقني والإتقان (الجودة) أحد أهم أسباب انتصاراته على هنود أمريكا، والمجتمعات الإفريقية والآسيوية، وسكان أستراليا الأصليين، واستعمار - أو بالأحرى استنهاب - ثرواتها البشرية والطبيعية والثقافية.

منذ القرن التاسع عشر، كان هناك تطور علمي وعملي لبلورة مفهوم (الجودة الشاملة) وتطبيقه في مناحي حياة المجتمع المختلفة؛ مثل: الصناعة، والزراعة، والتعليم، والصحة، والحكومة، والخدمات، والجيوش، والمشروعات المختلفة أيضاً. ويمكن تعريف (الجودة الشاملة) بأنها إستراتيجية إدارية تهدف إلى زرع الوعي بالإتقان أو الجودة التي تشمل جميع أعمال المؤسسة، وموظفيها، ومواردها، ومنتجاتها، وخدماتها، وأساليب الإدارة للمؤسسة، أو أنها طريقة مؤسّسة ما وفلسفتها التي تعتمد على مشاركة كل أعضائها بهدف الربحية على المدى البعيد من خلال إرضاء المستفيدين من الزبائن، بما في ذلك الأعضاء أنفسهم، والمؤسسة، والمجتمع، وتتبنى التخطيط الإستراتيجي والتحسين المستمر للعمليات والإجراءات والتواصل.

وتعود جذور مفهوم الجودة إلى روّاد من المهندسين والعلماء الأفذاذ؛ مثل والتر شيوارت[٦] وإدوارد ديمينج[٧] في معامل شركة (بيل)، اللذين قدّما المفهوم الإحصائي للجودة عام ١٩٢٠م. ثم

تكوّنت الجمعية الأمريكية للجودة أول مرة عام ١٩٤٦م. وفي عام ١٩٥٠م، ظهر مصطلح (الجودة الشاملة) أول مرة على يد الأستاذ أرماند فاينباوم[٨] في معهد ماسشوتس للتقنية، الذي أصبح فيما بعد مديراً لشركة جنرال إليكتريك. وإن كان للجميع مناهج وأساليب مختلفة إلا أن الهدف كان واحداً، وهو جودة الإنتاج والخدمات؛ فبعض العلماء اهتم بأسلوب الإدارة والجودة الإحصائية (ديمينج)، أو التخطيط للجودة (جوران)[٩]، أو «ثقافة الجودة، والوعي بالجودة، وانعدام العيوب، والبدء الصحيح للمشروع» (كروسبي)[١٠]، وهناك من اهتمّ بالإدارة والعلاقات الإنسانية (فاينباوم)، وهناك من نادى بالقيادة وليس الإدارة ورضا المستفيد (بيترز)[١١]. أو دمج الجودة الشاملة في إستراتيجية القيادة (أوكلاند)[١٢].

أما المدرسة اليابانية، فأبدعت أدوات جديدة في مجال الجودة لم يعرفها الغرب؛ مثل: مفهوم أن الجودة هي مسؤولية جميع أفراد المؤسسة، والتحليل المنطقي المنهجي للأثر والأسباب، ودوائر الجودة الأفقية (إشكاوا)[١٣]، أو عملية التفكير المنظم (أماي)[١٤].

### تجربة اليابان والجودة

بنهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، كانت الصناعة اليابانية قد انهارت تماماً نتيجة الهزيمة التامة في الحرب العالمية الثانية، والقضاء على بنيتها التحتية والبشرية بالقنابل النووية على هيروشيما ونجازاكي على الرغم من أن الإمبراطورية اليابانية كانت في حالة احتضار، وأوشكت الحرب أن تضع أوزارها، ولم يكن الأمر يستدعي قنبلتين نوويتين لإرغام اليابان على الاستسلام. وما قامت به أمريكا ليس سوى استعراض للقوة أرادت من ورائه أن تعلن تفوّقها، وتفرض سيطرتها على العالم كإمبراطورية لا ينازعها أحد. واشتهرت منتجات اليابان فيما بعد بالتقليد الرخيص، والجودة الرديئة، والمهارة المتدنية للقوى البشرية. لكن بدأت اليابان عام ١٩٥٠م في حلّ مشكلاتها وتخلفها عن الغرب بالتعليم، ودعوة روّاد الجودة الأمريكيين؛ مثل: جوزيف جوران، وإدوارد ديمينج، وأرماند فاينباوم، لنقل معارفهم وخبراتهم إلى اليابان للتحوّل إلى قوة اقتصادية. لكن بحلول عام ١٩٦٠م انقلب الأمر، وتفوّق التلميذ على الأستاذ، وأبدعت اليابان معايير جديدة تعلّم منها العالم والأمريكان؛ مثل: مفهوم دوائر الجودة. وانعكس اتجاه طلب العلم إلى اليابان، ونظر إليها الأمريكان على أنها معجزة في استيعاب الجودة والإضافة إليها. وبنهاية عام ١٩٧٠م، تفوقت اليابان بتطوير (الجودة الشاملة) بصبغة ثقافية يابانية، لتصبح ما يسمى (إدارة الجودة على جميع مستويات الشركة) على يد الأستاذ كوارو إشكاوا. وأضاف مهندسون يابانيون؛ مثل: شيجورو ميزونو[١٥]، ومازاكي أماي، وجنيشي تاجوشي[١٦]، وشيجو شينجو[١٧]، أساليب أخرى حديثة في مجال الجودة؛ مثل: الإتقان للوصول إلى منتجات وخدمات خالية من العيوب تماماً، والتفكير المنطقي المتشارك على كل مستويات المؤسسة، فأصبحت اليابان

أرماند فاينباوم



جوران



أحد أعضاء مجموعة السبع الصناعية بعد الدمار الشامل في الحرب العالمية الثانية، واقتصادية ذات تنافسية عالية: إذ كانت بين العشر الأوائل في ترتيب التنافسية الاقتصادية العالمية قبل كندا وبريطانيا[١٨]. ويمكن تفسير هذا التفوق إلى جودة التعليم، إضافةً إلى الجذور الثقافية والدينية للمجتمع الياباني القائمة على تقديس العمل وإخلاصه وإتقانه على المستوى الفردي والمؤسسي، والانضباط، والعمل الجماعي، والنظام، وقيم احترام الآخرين، والالتزام، واحترام الوقت.

وحتى عام ١٩٨٠م، كان تطور الجودة في الغرب بطيئاً، إلى أن بدأت وزارة الدفاع الأمريكية ومؤسسة أبحاث الفضاء وصناعة السيارات في إعادة تطبيق أساليب الجودة الشاملة لملاحقة نجاح اليابان الاقتصادي، ومتطلبات الحرب الباردة، ومشروعات غزو الفضاء.

وعانت بريطانيا عام ١٩٨٢م انخفاضاً ملحوظاً في نصيبها من التجارة الدولية: لازدياد قوة المنافسين في جودة المنتجات والخدمات؛ مما دعاها إلى القيام بحملة وطنية للجودة؛ لإبراز أهمية الجودة في عودة بريطانيا إلى مقدمة التنافس العالمي، فأصدرت عام ١٩٨٣م المقاييس البريطانية للجودة، ثم تبعها مجموعة المنظمة العالمية للمقاييس عام ١٩٨٨م كأدوات لإدارة الجودة، ولتشمل فلسفة (الجودة الشاملة) التي لا تزال تتطور حتى الآن. وأبدع أحد مهندسي شركة موتورولا عام ١٩٨٦م إستراتيجية جديد للجودة تُدعى (سيكس سيجما Six Sigma): بهدف الإقلال من العيوب في الإنتاج والعمليات[١٩]. وفي عام ١٩٩٢م، أطلقت المؤسسة الأوربية للجودة (إطار نموذج التميز): لمساندة المؤسسات في إستراتيجياتها لتحقيق أهدافها ومهامها على مستوى عالٍ من الجودة[٢٠].

### الإسلام والجودة

جدير بالملاحظة أن الدافع الرئيس لقدماء المصريين في إتقان العمل كان دينياً بمعتقداتهم الوثنية الغالبة (إلا من رحم ربي)، وكان وراء تقدّم اليابان الاقتصادي الإيمان بجودة الأعمال بموروث ثقافي ياباني في العمل قريب جداً من المعاملات الإسلامية على الرغم من أنهم غير مسلمين إلا من رحم ربي، إضافةً إلى الدافع الديني أيضاً (ديانتي الشنتو والبوذية).

والسؤال الآن: لماذا يميل معظم المسلمين إلا من رحم ربي إلى العمل من دون إتقان، والفردية، وعدم احترام غيرهم، وينفرون من النظام، ويتقاعسون عن استخدام العلم؟ هل إتقان العمل والجماعية واحترام غيرهم والنظام قاصر فقط على العبادات؟ هل العلم قاصر على العلوم الشرعية؟ الإجابة بالنفي قطعاً؛ لأن رسالة الإسلام وسطية لخير البشر في الآخرة وفي الدنيا أيضاً: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ القصص: ٧٧، وخلق الله البشر ليعبدوه وليعمروا الأرض أيضاً، فكيف يكون العمار من دون إتقان؟ ذلك هو الخراب بعينه. فالعمل الصالح في الإسلام يشمل كل ما له علاقة بالعبادات والمعاملات أيضاً من منظور رؤية الإسلام الشاملة للحياة الدنيا والحياة الآخرة. والإسلام يحترم العقل، ويشيد بالعلم والعلماء: مما دعا أحد الغربيين إلى القول بأن «القرآن كتاب مقدّس تحتل فيه العقلانية مكاناً كبيراً»، ويقول آخر: «أعظم نشاط فكري قام به العرب كان في حقل المعرفة التجريبية». وكان ذلك واضحاً في تقدم المسلمين اقتصادياً وعلمياً في عصور الإسلام الأولى، وكانت شمس العرب تسطع على الغرب المتخلف نسبياً ذلك الوقت[٢١]. والقرآن الكريم حافل بالدعوة إلى العلم، والتفكّر، والنظر، والتعقل، وآيات إعجاز الكون والخلق. وأطلق الإسلام العبادات من القيود التي وضعها رجال الكنيسة، وخرج بها إلى دوائر أوسع من الجمود ومن مجرد طقوس إلى دائرة واسعة تشمل كل الأعمال، والإنسان، والإتقان، والجماعية، والنظام، والعلم، بشرط توافر النية لله، وتجنب ما حرّم الله، وتحري حلاله. والخطأ الذي وقع فيه المسلمون الآن هو حصر العبادة في الشعائر والطقوس التعبدية فقط، بينما كان جيل العصور الأولى يفهم الحياة كلها عبادةً، سواء أكان ذلك عبادات، أم عملاً اقتصادياً، أم اجتماعياً، أم علمياً[٢٢]، وكانوا في قمة درجات التنافسية عالمياً.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حافلان بالدعوة إلى إتقان العمل، والعمل الجماعي، واحترام الوقت، والنظام بأسلوب مباشر، وضمنياً في العبادات أيضاً، فنجد في القرآن الكريم تكرار ذكر العمل الصالح، واقترانه بالإيمان، والتعاون مع الآخرين، فمثلاً: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ البقرة: ٥٢، و﴿تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

المائدة: ٢، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١) وغيرها.

وكذلك لا تخلو السنة النبوية المطهرة من مثل هذه التعاليم والتوجيهات: ففي الصحيح أنه - صلى الله عليه وسلم - قال: (إن الله يحبّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[٢٣]، ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً يصلي في ظهر قدمه لمعة كقدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعيد الوضوء والصلاة[٢٤]. وكذلك نجد في السنة الشريفة معاني أخرى في المعاملات، إضافةً إلى العبادة: مثل: احترام الوقت: (الصلاة لوقتها)[٢٥]. والنظام: (إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج)، و(سوّوا صفوفكم؛ فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة)[٢٦]، و(أقيموا صفوفكم وتراصّوا)[٢٧]، والحثّ على العمل الجماعي: (صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته، وفي سوقه، خمسة وعشرين ضعفاً)[٢٨]، و(صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد ٢٧ مرة)، و(أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدّوا الخلل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفاً وصله الله، ومن قطع صفاً قطعه الله)[٢٩]، ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة[٣٠]، وقال

**الدافع أو الوازع الديني هو أحد أهم أسباب الجودة والإتقان في العمل، وتعدّ الهيمنة والتنافس بين الأمم هو الدافع الآخر**

## المراجع


1- Rhind mathematical papyrus. http://www.daviddarling.info/encyclopedia/R/Rhind__papyrus.html

2-http://news.nationalgeographic.com/news/2002020805__0805/08/__giza__2.html

3-http://oi.uchicago.edu/research/projects/giz/comp__model2.html

4-http://www.shsu.edu/~mth__jaj/math467/melissa__presentation.pdf

٥- حازم الببلاوي، «هل مازال مالتس معنا؟»، الأهرام: ٢٢/١١/٢٠٠٨م

6- Walter A. Shewhart: Statistical Method from the Viewpoint of Quality Control. 1986

7- W. Edwards Deming: Out of the Crisis. 2000

8- Armand V. Feigenbaum: Total Quality Control. 40th ed., 1991

9- M. Juran, Frank M. Gryna: Juran's Quality Control Handbook . 1988

10- Philip B. Crosby: Quality Is Free: The Art of Making Quality Certain. 1979

11 -Tom Peters: Thriving on Chaos : Handbook for a Management Revolution. 1988

12 - John S Oakland : TQM; Text with Cases. Third Edition. 2003

13- Kaoru Ishikawa: What Is Total Quality Control?: The Japanese Way. 1985

14 -Masaaki Imai :Kaizen; The Key To Japan's Competitive Success. 1986

15 - Shigeru Mizuno :Management for Quality Improvement: The Seven New Qc Tools (Productivity's Shop floor). 1988.

16- Genichi Taguchi, et al :Taguchi's Quality Engineering Handbook. 2004.

17- Shigeo Shingo: Zero Quality Control: Source Inspection and the Poka-Yoke System. 1986.

العمل الصالح في الإسلام يشمل كل ما له علاقة بالعبادات والمعاملات أيضاً من منظور رؤية الإسلام الشاملة للحياة الدنيا والحياة الآخرة

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني)[٣١]، وأقيمت الصلاة فرأى النبي - صلى الله عليه وسلم - ناساً يصلون، فقال: (أصلاتان؟!)[٣٢]، و(إنما جُعل الإمام ليؤتمّ به، فلا تختلفوا عليه، فإذا ركع فاركعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا لك الحمد، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى جالساً، فصلوا جلوساً أجمعين، وقال صلى الله عليه وسلم: (أقيموا الصف في الصلاة؛ فإن إقامة الصف من حسن الصلاة)[٣٣]. وفي احترام الآخرين: (ليس منا من لا يوقّر كبيرنا، ويرحم صغيرنا)[٣٤]، و(وإذا حضرت الصلاة فليؤذّن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم)[٣٥].

الخلاصة

حاولت هذه المقالة الإبحار في ميادين مختلفة لاستقراء معاني الجودة والإتقان ومفاهيمهما باستعراض مثال من الحضارات القديمة الشرقية، وعرض مختصر لتطور مفاهيم الجودة في الحضارة الحديثة الغربية واليابانية، ثم استقراء مفهوم الجودة في الإسلام. ويمكن القول: إن الدافع والوازع الديني هو أحد أهم أسباب الجودة والإتقان في العمل، وتعدّ الهيمنة والتنافس بين الأمم هو الدافع الآخر. وفي كل الحالات، الجودة هي سبيل الدرجات العليا للتنافسية العالمية للأمم التي تريد البقاء والتقدم. والجودة لها جذور في الإسلام تحتاج إلى إعادة إحيائها؛ لكي تؤتي ثمارها يانعةً.

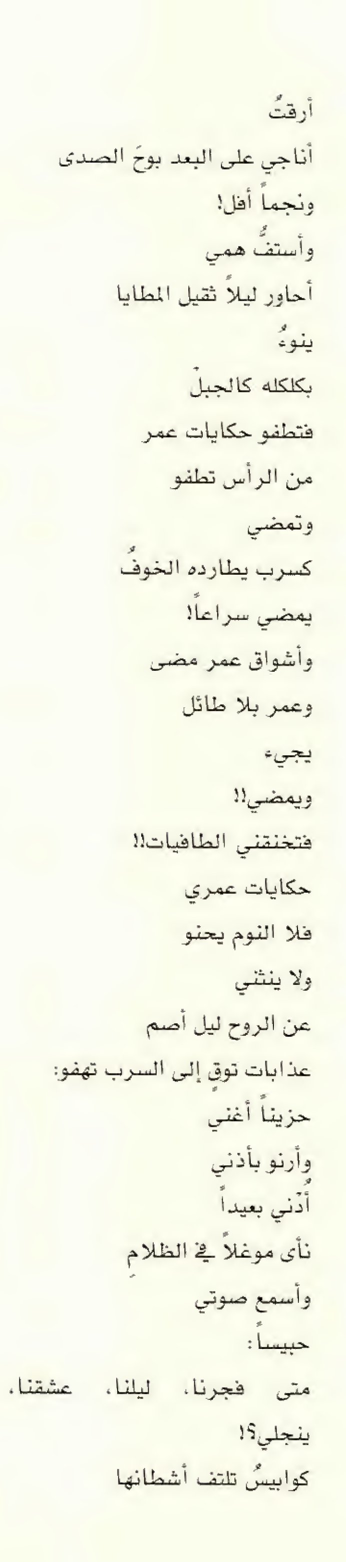
18 - The Global Competitiveness Report 20082009-
19 - http://www.motorola.com
20 - http://www.efqm.org/
٢١- زجريد هونكه، «شمس العرب تشرق على الغرب»، الطبعة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.
٢٢ - د. مصطفى حلمي، «الإسلام والأديان»، دار الدعوة، (٢٠٠٢م).
٢٣- الراوي: عائشة، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: ١٨٨٠ (حسن).
٢٤- الراوي: بعض أزواجه صلى الله عليه وسلم، المحدث: الإمام أحمد، المصدر: الطهارة من شرح العمدة، الصفحة أو الرقم: ٢٠٧/١، وإسناده جيد.
٢٥- الراوي: عبدالله بن مسعود، المحدث: البخاري، المصدر: الجامع الصحيح، الصفحة أو الرقم: ٧٥٣٤ (صحيح).
٢٦- الراوي: أنس بن مالك، المحدث: البخاري، المصدر: الجامع الصحيح، الصفحة أو الرقم: ٧٢٣ (صحيح).
٢٧- الراوي: أنس بن مالك، المحدث: البخاري، المصدر: الجامع الصحيح، الصفحة أو الرقم: ٧١٩ (صحيح).
٢٨ - الراوي: أبو هريرة، المحدث: البخاري، المصدر: الجامع الصحيح، الصفحة أو الرقم: ٦٤٧ (صحيح).
٢٩ - الراوي: عبدالله بن عمر، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الترغيب، الصفحة أو الرقم: ٤٩٥ (صحيح).
٣٠ - الراوي: وابصة بن معبد، المحدث: الإمام الشافعي.
٣١ - الراوي: أنس بن مالك، المحدث: الإمام أحمد، المصدر: العلل ومعرفة الرجال.
٣٢ - الراوي: أنس بن مالك، المحدث: البخاري، المصدر: التاريخ الكبير، الصفحة أو الرقم: ١٨٦/١، (رُوي مرسلاً)، والمرسل أصح.
٣٣ - الراوي: أبو هريرة، المحدث: البخاري، المصدر: الجامع الصحيح، الصفحة أو الرقم: ٧٢٢ (صحيح).
٣٤- الراوي: أبو زيد، المحدث: أبو حاتم الرازي، المصدر: العلل لابن أبي حاتم، الصفحة أو الرقم: ٢٩٠/٣.
٣٥ - الراوي: مالك بن الحويرث الليثي، المحدث: البخاري، المصدر: الجامع الصحيح، الصفحة أو الرقم: ٦٨٥ (صحيح).

قصيدة

# مجرد أرق

عبدالرزاق بن سعود المانع

الرياض - السعودية



أرقتُ

أناجي على البعد بوحَ الصدى

ونجماً أفل!

وأستفُّ همي

أحاور ليلاً ثقيل المطايا

ينوءُ

بكلكله كالجبلْ

فتطفو حكايات عمر

من الرأس تطفو

وتمضي

كسرب يطارده الخوفُ

يمضي سراعاً!

وأشواق عمر مضى

وعمر بلا طائل

يجيء

ويمضي!!

فتخنقني الطافيات!!

حكايات عمري

فلا النوم يحنو

ولا ينثني

عن الروح ليل أصم

عذابات توقٍ إلى السرب تهفو:

حزيناً أغني

وأرنو بأذني

أُدْني بعيداً

نأى موغلاً في الظلامِ

وأسمع صوتي

حبيساً:

متى فجرنا، ليلنا، عشقنا،

ينجلي؟!

كوابيسُ تلتف أشطانها

وليس تراها العيونُ
تهيجُ
وتخنقُ أحلامَ صبٍّ
يعانق أحزانه
جاهداً يختصرْ
كوابيسَ ليلٍ
جثا سادراً
يقهقه، يسخرُ
من عشقنا
فلا النومُ يدنو
ولا ترعوي
حشودٌ من الظلمة الموحشة:
(ألا أيها الليل هل تنجلي
بصبح)؟!
به صبحنا يبزغ!
وأصغي، وأصغي لصوتي
يرددُ: لا غالب اليوم غير الإله!
وأسمع ترجيعَهُ أحرفاً
على حائطٍ
فوق قصرٍ منيفٍ
على بعد آلاف تجثو
على البيد والأبحر الموحشات
وأغفو
على هودج سابح في الفراغِ
تَناوبُ في حمله ناقتان
أداعب (ولادةَ) الفاتنةْ
على غفلة من عيون ابن زيدون والمكتفي[1]
أزيح خماراً شفيف الحواشي
على وجهها
فتزجرني أمه عابسةً:
حذارِ!!

يؤنبني وجهُها الصامتُ
ويكبر، يكبر وجهي
فيغدو شفاهاً لها فسحة المشرقين
تصير نداءً
يسد مسارب حلم التخفي والأمنيات
وصارت نشيداً، عويلاً
يقضّ مضاجع نوم طويل
وراح يدوّي
كرعد تدحرج فوق الرؤوس
له حكمة الغابرين ارتعاش الحياةِ
ونكءُ الجروح
فيبكي (الصغيرُ)[2]
كما طفلة ضاع منها الطريق
فتصفعه الأحرف الراعفات:
(ابكِ مثل الصغار ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الكبار)[3]
وأصغي
طويلاً، طويلاً
وأصحو




١- اختصار لاسم المستكفي والد (ولادة).
٢- الصغير: لقب عبدالله آخر أمراء غرناطة، وكان سادراً لاهياً. أقبل على أمه وجثا يبكي عندما رأى جيوش الإسبان تدخل غرناطة، وتأكد من سقوط ملكه.
٣- هذا قول أمّ عبدالله الصغير، التي طالما نصحته ليرتدع عن لهوه وجهله من دون جدوى.


لغة

لغتنا العربية

# إستراتيجية التنظير والتنفيذ

أحمد محمد المعتوق

الظهران - السعودية

حققت المؤتمرات العربية التي تناولت قضايا اللغة وشؤونها وشؤون ثقافتها نسبة جيدة من أهدافها على المستوى النظري، وتمكن عدد من المشاركين الجادين فيها - بلا شك - من التعبير عن عميق إدراكهم خطورة التحديات التي تواجهها لغتنا العربية المعاصرة، سواء في مجالات التعليم والإعلام أم على المستوى الاجتماعي والقومي العام، وتمكن بعض هؤلاء أيضاً من الإفصاح عن رغبتهم الصادقة في التغيير والإصلاح الشامل، ووجَّهوا الدعوات الجادة الخالصة للحفاظ على الهوية القومية والخصوصيات الاجتماعية والحضارية لمجتمعنا العربي، وطرحوا عدداً من الأفكار القيمة والنظريات الفاعلة الجديرة بالعناية والرعاية من صنّاع القرار في عالمنا العربي، والحرية بالتفكير في نقلها من إطارها النظري إلى حيّز التنفيذ؛ لتتحقق فاعليتها في الإصلاح المنشود، والتطوير المرتقب، على أساس أن الأفكار والنظريات مهما كان مصدرها، وكانت قيمتها، تفقد أهميتها وفاعليتها إذا لم يُعمل بها وتظهر فاعليتها على أرض الواقع، وأن هذا الأمر لا يتحقق إلا بمؤازرة جادة خالصة من الجهات المسؤولة أو المعنية بالأمر نفسه في السلطات الحاكمة.

إلا أن المؤازرة التي تأتي من الجهات المسؤولة غالباً ما تتخذ طابعاً شكلياً، وضمن تنظيمات إجرائية لا تخلو من التشجيع المعنوي والتعاون الضمني، ولكنها لا تفي بالمطلوب. إن المؤازرة الفعلية الجادة لا تتحقق بالخطب الحماسية، والوعود الجزيلة المغرية، ولا حتى بمجرد التبرعات المالية السخية والدعم المسجّل على الورق.

أن يسخّر الأجهزة والهيئات التي يموّلها أو يشرف عليها أو يدعمها لبثّ بعض ما توصّل إليه المؤتمرون من توصيات ومقترحات، والعمل من خلال هذه الأجهزة والهيئات على توعية الجمهور بأهميتها، وضرورة تفعيلها وتضافر الجهود من أجل تنفيذها على صعيد الواقع العملي. ولكن هذا نادراً ما يحصل في عالمنا العربي. أما أن تُوضع تلك التوصيات والمقترحات قيد الدرس الجاد المباشر، ويُسعى إلى تبنّيها أو تبني ما يمكن تنفيذه منها، فهذه مسألة أخرى.

ومن جانب آخر، فإن من مهام الباحثين والمنظّرين أنفسهم - كما يُعتقد - أن يسعوا بدورهم بجد وإخلاص إلى إقناع من يندبونهم من الوجهاء وصنّاع القرار بأهمية تنفيذ ما ينظّرون له، وما يتوصّلون إليه من القناعات والأفكار، ليس بالخطب الرنانة



**لا يمكن لمن كان في قرارة نفسه مهزوماً، أو كانت لغته مهزومة في داخله، أن يقنع الآخرين بلسانه بأنها منتصرة، راسخة القواعد والأصول**



وإنما تتحقق بما يجب أن يصاحب ذلك كله من احتضان عملي فاعل، وقرارات حاسمة تحوّل الدعوات أو الرغبات الجميلة إلى حقائق قائمة وواقع حقيقي مشهود، وإلا فقدت أهميتها، وتعرّت من جمالها.

قد يرعى بعض المسؤولين العرب المؤتمرات التي تُعقد من أجل اللغة العربية، ومناقشة قضاياها، بل يشارك نفر منهم في الحضور الفعلي والحديث والنقاش والمداخلات أيضاً، ويقدّمون الدعم المادي والمعنوي المباشر المنطوق منه والمسموع، وهذا في حدّ ذاته عمل جليل يُسجّل لهؤلاء المسؤولين بلا شك، ولكنه قاصر مهما كان مقداره؛ إذ بإمكان هذا المسؤول الكبير أو ذاك في الحد الأدنى مثلاً

التي يُعزف فيها على وتر الدين أو القومية والوطنية، أو يُكال المديح فيها لهذه الجهة المسؤولة أو تلك، ولا بالاسترحام والاستعطاف والاستجداء أو التزلّف والتملّق الأجوف أيضاً، وليس كذلك بالاستعلاء والانعزال أو الافتراض السلبي المبيّت للجفوة أو الرفض، وإنما باتخاذ خطوات حيوية فاعلة تتمّ على التوحّد الملموس بين العقل والروح، وعن تفاعل الباحث أو المنظّر نفسه مع ما يرتئيه أو يقرّه، وإيمانه الفكري والنفسي العميق بما يدعو إليه، وتمثّله إياه عملياً قبل الدعوة إليه نظرياً، إضافةً إلى التفكير في حيثياته ومستلزماته وإمكانيات تحقيقه على الصعيد العلمي المتاح.

وما دام الحديث هنا عن اللغة وعن ثقافتها، فإن من سبل النفاذ بالرأي المتعلّق بها إلى أذهان صنّاع القرار ووجدانهم، ودعوتهم في النهاية إلى الاهتمام بها وبشؤونها على سبيل المثال: تجسيد المفكّر ما يدعو إليه في واقع حياته الشخصية بنحو عفوي طبيعي أصيل ينمّ على قناعة راسخة، ونيّة خالصة، وتوجّه صادق، ويستتبع ذلك ابتعاد هذا المفكّر نفسه عن كل ما يوجب التناقض والاختلاف والمفارقة بين القول والفعل قدر الإمكان.

إن من المفارقات التي تتمّ على التناقض أو التغاير بين القول والفعل، وتشعر بعدم قناعة صاحب الرأي بما يطالب به غيره مثلاً: أن يدعو رجل اللغة وأستاذها إلى رعاية اللغة القومية وحمايتها والاعتزاز بها بينما هو نفسه يتحدث بلغة هجينة هزيلة، يمتزج فيها الأصيل بالدخيل، والمقبول بالمرذول، وتركّب فيها الكلمات والعبارات والمصطلحات الدخيلة من دون ضابط ولا رابط، أو يدعو إلى استعمال العربية الفصحى ورعايتها، ويتحدث عن جمالها وضرورة التمسك بها بلهجة عامية مبتذلة تُهان فيها الفصحى، أو يُغمط حقها، وتشوّه صورتها. إن ذلك مناقض، كما هو واضح، لما يسعى إليه من البرهنة على حيوية اللغة وأصالتها وقدرتها على

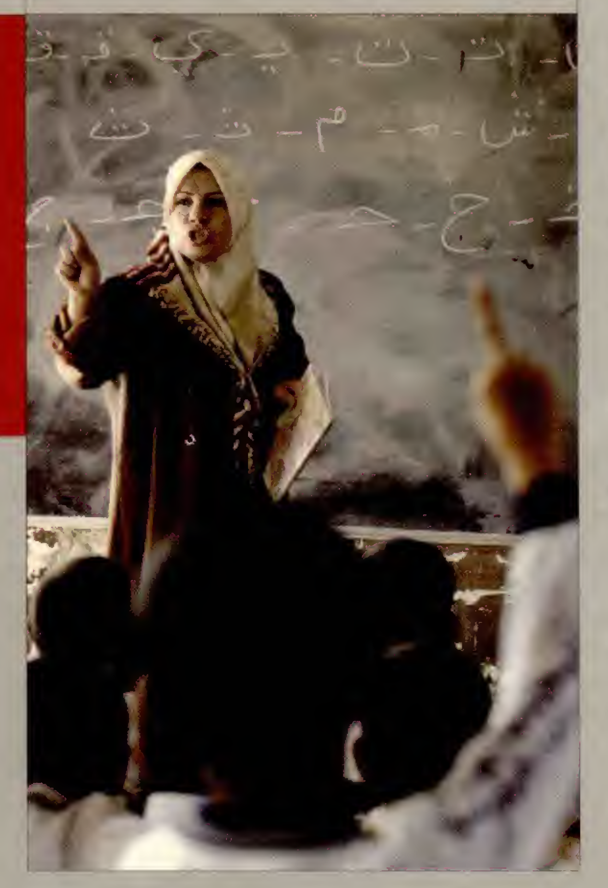
**التهديد الذي تواجهه العربية، والتحديات أو المخاطر التي تتعرّض لها، لا تصل - ولن تصل- إلى الحد الذي يؤدي إلى الخوف عليها من الانقراض أو الاندثار**

الوفاء بمتطلبات الحياة، ومن ثَمّ فإن احتمال القبول به بعيد، سواء من صناع القرار أم من غيرهم.

لا يُطلب من أستاذ اللغة، أو من الباحث في شؤونها، بطبيعة الحال أن يتقعّر أو يتحذلق في لغته ليكون رأيه مقبولاً، وتكون دعوته مسموعة، ولكن المطلوب منه هو أن يجسّد قناعته بنحو مرن أصيل ينبئ عن صفاء روحه، ونقاء سليقته، وحياة اللغة ليس على لسانه فحسب، وإنما في أعماق نفسه ووجدانه أيضاً. وهذا لا يتأتى بحفظ متون اللغة، واستظهار قواعدها وشروحها ونصوصها كما قد يتصوّر بعض الناس، وإنما يتأتى بتربية الحس اللغوي، وتهذيب السليقة، وتصفية الذوق بنحو يمكّن صاحبه من إدراك جمالية اللغة، ويشعره باستقرارها في ذاته، وذوبانها في فكره، قبل أن تكون ظاهرةً على لسانه. وهذا كله لا يتحقق إلا عن طريق تقوية الارتباط الروحي باللغة نفسها، وبثقافتها الغنية، وأدبها الرفيع الذي يجلّيها ويبرزها في أبها صورها، أياً كانت أوعية هذه الثقافة وهذا الأدب.

ومن جانب آخر، لا يمكن لمن كان في قرارة نفسه مهزوماً، أو كانت لغته مهزومة في داخله، أو هزيلة متراجعة من حيث مضمونها أو رصيدها الثقافي: أن يقنع الآخرين بلسانه بأنها منتصرة، راسخة القواعد والأصول، جديرة بالعناية والتقدير. لذلك نجد أولئك العرب المنتصرين للغات الأجنبية أو لثقافاتها في داخلهم؛ نتيجة للإحساس بنقص الذات أو ما يصدر عنها، لا يؤثرون فيما يجاهرون أو يتظاهرون به من التفاخر بالعربية، أو الدعوة إلى نصرتها أو تطويرها أو العناية بها؛ لأن أحاديثهم تغاير ما هو كامن في نفوسهم، ودعواتهم غالباً ما تكون عرضةً للاضطراب والتناقض الناتج في الأصل من حربهم مع ذواتهم، أو من الجلد المستمر لهذه الذوات.

لم أستنكر من مذيعة الـ(إم. بي. سي) MBC أن تسألني في حوار عابر بصيغة تشاؤمية عما يفيد بأن «اللغة العربية في طريقها إلى الانقراض أو الاندثار»؛ لأن قناة مثل الـ(إم. بي. سي) MBC غير معنية أصلاً بنشر اللغة العربية، ولا بمعالجة قضاياها. وقد أجبت المذيعة حينها عن السؤال من منطلق اعتقادي كمسلم بأن اللغة العربية خالدة لخلود الدين وشهادة كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من تحته: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، وناقشت الموضوع بما يتناسب مع الوقت المتاح في موضوعية تامة، ولو كنت في الواقع مستهجناً ومستغرباً من



فكرة السؤال نفسه، غير أن هذا الاستهجان والاستغراب تضاءلا أمام ما شهدته وسمعته فيما بعد من أحد الباحثين في شؤون اللغة العربية وآدابها، وهو يعلن صراحةً، وبضرس قاطع، ومن على منبر الجامعة العربية (بيت العرب)، ومن خلال مؤتمر دولي يرفع شعار الدعوة إلى تنمية العربية وتطويرها وتعزيز مكانتها، ويُنادى فيه بصوت عالٍ وقويّ: «مرحى بالفصحى»: يعلن «أن اللغة العربية آخذة في الانقراض والاندثار»، ويؤكد أن هذا الأمر ليس من باب التوقّع أو الاحتمال، وإنما «هو حتميّ وحاصل بالفعل، ولا مناص من التسليم به!!».

لقد تساءلت حينها بيني وبين نفسي وقلت: «إذا كان الأمر كما قال الكاتب أو الخطيب المذكور فلماذا عُقد هذا المؤتمر الذي سعينا إلى المشاركة فيه؟! أليس من قبيل العبث أو إضاعة الوقت والجهد أن يُعقد مؤتمر دولي يُدعى إليه العشرات من الباحثين والمفكرين، ويُنادى المئات من المثقفين والإعلاميين وطلاب المعرفة لحضوره؟! أمن أجل تنمية لغة مقضيّ عليها بالزوال والانقراض أو نصرتها؟!». ألا يعدّ ذلك من المفارقات التي يصعب معها مواجهة صنّاع القرار وإقناعهم بالعمل على تنفيذ ما ينتهي إليه مثل هذا المؤتمر من توصيات وقرارات؟!.

نحن لا نقول: إن العربية في منأى عما يهدّد سيطرتها وهيمنتها الغالبة في مجتمعها في الواقع الراهن، ويبعث على القلق مما قد

تواجهه من تحديات أكثر خطورة، وإلا لما اجتمع المجتمعون، وحضر المهتمون في المؤتمر الذي نحن بصدده، ولا في غيره مما يتعلق بشؤون اللغة. إلا أن التهديد الذي تواجهه العربية، والتحديات أو المخاطر التي تتعرّض لها، لا تصل - ولن تصل - إلى الحد الذي يؤدي إلى الخوف عليها من الانقراض أو الاندثار، فضلاً عن القول: إنها في حالة انقراض فعليّ مستمر؛ ذلك لأن الله - سبحانه وتعالى - راعيها، وقد وعد بدوام حفظها كما سبق القول، وقد ثبت ذلك عبر حقب التاريخ المتعاقبة.

باحث آخر يتحدث في المؤتمر المذكور نفسه عن مستقبل اللغة العربية، وشؤون المحافظة على القومية وعلى الهوية الثقافية، فيقحم في حديثه عدداً من الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم الأجنبية بحجة




التطوير، أو بحجة أن المستمع لا يستوعب ما يقوله إلا إذا استعملت هذه المصطلحات، أو بحجة أوهى منها، وهي أن هذه المصطلحات ليس لها في اللغة بدائل واضحة، ولا يمكن إيجاد هذه البدائل.

ماذا عسى أن يقول مثل هؤلاء الباحثين للناشئ العربي الذي يستمع إليهم، أو لصانع القرار العربي الذي يناشدونه دعم اللغة ورعايتها، لو احتُجّ على أحد منهم وقيل له: إنما أنت يا سيدي تنفخ في قربة ممزقة؛ لأنك تطلب تنمية لغة تشهد أنت بنفسك على أنها غير قابلة للنمو، أو أنها مقدمة على زوال أو تراجع حتميّ، وتطلب الحفاظ على هوية أنت نفسك لا تملكها، أو تدعو إلى لغة لا تصلح إلا مرقّعة، أو أنها قاصرة لا يمكنها أن تسدّ حاجة أهلها ما لم تستجدِ عطف غيرهم. أبمثل ذلك تكون الدعوة إلى الاعتزاز باللغة والمناداة للعناية بها، وبمثل ذلك تُكسب ثقة أصحاب القرار، وتُستثار هممهم لتنفيذ توصيات المنظِّرين؟!

متى تحقق الوعي السياسي بدور اللغة في إصلاح المجتمع وتنميته وبنائه، والحفاظ على استقلاله وارتباطه الوثيق بكل الأجهزة التي تنظّمه وتديره؛ صلحت اللغة، وصلح أمرها في حاضرها ومستقبلها. والوعي السياسي بدور اللغة مرهون بوعي القائمين على شؤون اللغة والباحثين في قضاياها بالدور الموكل إليهم في تحقيق الوعي السياسي بالوسائل والطرائق المثلى التي يمكن أن يتجسّد بها هذا الوعي؛ لتتحوّل النظرية بعد ذلك إلى واقع ملموس، ويتحوّل الإدراك إلى حقيقة ثابتة، والحلم الجميل إلى حياة مفعمة بالحركة والنشاط.

ولنا أن نقول هنا: إن الخير وافر، وعطاء الله مستمر، وخزائن الأرض تحت أقدام هذا المجتمع؛ مجتمعنا، وبين يدي ولاة الأمر فيه. ومن حقه جلّ شأنه أن يُشكر على ما أنعم به وتفضّل، ومن مظاهر الشكر له جلّ شأنه حماية ما وعد بحفظه ورعايته.

إن وعد الله عز وجل بحفظ لغة كتابه الكريم، وتكفّله برعايتها؛ يعني تكريم من يجعله وسيلةً من وسائل هذا الحفظ وهذه الرعاية، ولا مناص لعباده المؤمنين من أن يكرموا من كرّمه وخصّه بهذه المهمة الشريفة. ومن هذا المنطلق الديني يُفترض أن ينشأ وعي ولاة الأمر في بلادنا العربية بأهمية حماية اللغة، والعمل بجدّ وإخلاص على دعمها بكل ما يتوافر لديهم من الطاقات والإمكانيات. إضافةً إلى المنطلق القومي ومنطلق الغَيْرة على الأصل والدم والهوية التي لا يمكن استبدالها أو الانسلاخ عنها بحال من الأحوال. دعم هذه اللغة بالتزام العناية في استعمالها على المستوى الشخصي لكل مسؤول، ليبقى قدوة حسنة لرعيته، ثم بالتوجّه الصادق لدراسة مختلف الإستراتيجيات النظرية التي تهدف إلى نشرها، والارتقاء بها، وفرض سيطرتها وهيمنتها في مختلف أوجه الحياة المعاصرة، والسعي الحثيث الجاد إلى تطبيق هذه الإستراتيجيات وتمثيلها على صعيد الواقع العملي.

# امرأة الطين رجل النار

قصة

فـوزيـة الـعـلـوي
القصرين - تونس

لا أحد يعلم ما الذي جعل مرجانة تسدّ نوافذ البيت؟ سدّتها جميعها إلا فوهة الباب وكوة صغيرة في السقف تعدّ عبر ضوئها الشحيح طعامها، وترتب أشياءها، وترتق أثوابها. وما كانت لتستعين بأحد في ذلك، بل خلطت بنفسها الطين والقش والماء وقطع الزجاج والصفيح، ورصّفت الحجر في النوافذ، ثم طلته بحرص شديد، ووقفت ترقب أن يجف البناء، وهشّت الصبيان لئلا يعبثوا بجهدها. لم تكن مرجانة كثيرة الكلام، ولا كانت تستسيغ هذر الآخرين؛ لذلك لم ترَ موجباً لشرح ما أقدمت عليه، لكن زوجة ابنها التي كانت تسكن غير بعيد عنها ذكرت أنها ترى ما لا يُرى، وأن عينها كعين الحية؛ لذلك كانت تبصر في الظلام، وتنقي القمح من الحصى والدنيا غبش، وتعدّ نقودها وتعين الإبرة من دون مصباح، بل ذهبت إلى أكثر من ذلك فاتهمت بالسحر والشيطنة، وإلا ما حاجتها إلى الحرابي التي كانت تجمعها، وما حكاية القطة السوداء التي تلازمها كظلها؟ وما نصبها الفخاخ في الخرائب القبلية لاصطياد ذكر البوم؟ وما هذا البخور الحار الذي يصدر كل مساء من بيتها،



فيعمي العيون، ويحرق الحناجر؟ ولم تكتفِ زوجة الابن بذلك، بل أضافت أن مرجانة تتعامل مع جني اسمه بلاّر، وتحبسه في صندوق أثوابها، وتبعثه إذا نام الناس إلى كل ما تحتاج إليه، فيحتال لها على المال والمصوغ والسكر واللحم، حتى إذا عاد ضربته على رأسه لإبطائه إلى أن يتطاير منه الشرر، وتعيده إلى الصندوق بعد أن تلعقه الملح. ولا تعطيه ماءً أبداً؛ لأنه إن شرب فإنه سيتخلص من سحرها وينقلب عليها. لكن النسوة لا يصدقن شيئاً من خرافاتها، بل تعدّه بعضهن من باب الافتراء

لا غير: لأن مرجانة لم تمكن ابنها من ميراث أبيه، وقالت: يكون له ذلك بعد موتي؛ لهذا كرهتها زوجته، وحقدت عليها، وباتت تلفق حولها الحكايا والأباطيل؛ إذ كيف لمن كانت تسيطر على جني أن تخزن كل هذا الدقيق والتمر والسمن؟ ولماذا تراها تجفف البقول وتجمع الحطب، بل إنها فكرت أن تدخل معها إلى قعر البيت إوزّاتها البياضات، وعنزاتها البيضاوات؟ أما كان للجني أن يرفع عنها كل هذه الكلف؟ لكن مرجانة لم تقدم بعد على استدعاء حيواناتها إلى داخل الدار، والخطب لم يحلّ بعد.

ومازالت غادية رائحة، جامعة مانعة، تسرح كالنملة كامل اليوم وتعود محملة بالقش والشعير وأكواز الذرة وما لا يخطر على بال أحد، وتجس بإصبعها الحجر المطين تتفقد صلابته، ولا تعدم أن ترص طوبة هنا أو حصاة هناك، تمتّن بها الجدار حتى لاينفذ عبره أحد، وتضمن لنفسها السلامة إذا أزف البلاء العظيم.

تجلس مرجانة إذا دار الظل أمام دارها بعد أن تكنس الساحة وترشها بالماء، وتبسط النطع وتتربع، مهراسها بيمينها، وغربالها بشمالها، تغزل «الطعمة» لشتاء متلفع بالغموض، وترفع بصرها بين الحين والآخر إلى السماء وهي مقطبة تتأمل ما يأتي به السحاب. تقول لجارها الأسود، الذي يصل متعباً ويتهالك قربها على التراب:

- ألا ترى ما أرى من أشكال السحب؟ انظر يا أعمى، أليست تلك سحليات وثعابين وسلاحف في حجم الغيلان؟ انظر أرجلها وأفواهها وعيونها، حدّق، ألا ترى كيف تتململ وتنذر بالهلاك القريب؟ ثم ألا ترى كتل الجمر المتوقدة في الغيم الأسود؟ أو تظنها من الشمس تلك؟ لا يا أبله، إنها حمم ستقذف شواظها عن قريب، ألا تسمع معي هذا الأزيز البعيد، وهذا الصرير، وهذه الدمدمة؟ لو كان رعداً لوصل إلينا سحابه، ولو كان زلزالاً لدكت الأرض علينا وما انتظرت كل هذا الوقت. ألم أخبركم أن خطباً يتربص بكم؟ وكم نصحتكم فما انتصحتم، وكم أمرتكم أن تتزودوا بما يفيدكم لئلا تبيدوا عن آخركم، فما أصغى إلى أحد، وظننتم أن بي خرفاً، فلتذهبوا إلى الجحيم إذاً.

يجلس الأسود مرتعشاً إلى جوار مرجانة، ذاك دأبه منذ عرفها، يعتريه ارتعاش في قلبه بمجرد أن يراها، ولو مازال على شهوته لخيّل إليه أنه يعشقها، ولكنها تأسره على نحو يشبه العشق.

يمد ساقيه المعروقتين المعفّرتين بالتراب ويرتاح عند بابها مستمتعاً بحديثها، وبرنين مغزلها في المهراس، ويظل ببصره الكليل يتابع قطعان السحاب محاولاً قراءة ما تقرؤه مرجانة، فلا يفلح، فيحول بصره صاغراً مستفسراً ليريح نظره فوق وجه مليح عتيق بسمرة كالخزف المحمي توشّيه زخارف وشم من وقت غابر، وقد التفت حية خضراء فوق الذقن الذي بدأت تكسوه التجاعيد.

- قلت: ثعابين وغيلان؟ أجل، هي غيلان وثعابين، ولكني لا أسمع الأزيز الذي تسمعين؛ فسمعي ضعيف كما تعلمين، ولكنه رعد على كل حال.

تضع مرجانة بين يديه بضع حبات من التين الجاف مغموسة في الزيت وتصرخ في وجهه:

- كُلْ، كُلْ يا رجال، ستكون أول من يلتهمه الثعبان.

يقبل الأسود على الحبات، يمتصها بتلذذ وهدوء، هو لا يستطيع أن يجمع شيئاً مما جمعته مرجانة، وهو حائر من أين تأتي بكل هذه الأشياء، ولا يستطيع أن يسد نوافذ بيته، ولو سدّها فإن جدرانه هشة، وهي تسقط بضربة كف واحدة، فما له وهذا العناء، وليستمتع بحديث مرجانة وتكهناتها وما تجود عليه من الطيبات.

* * *

يخرج بلاّر متسللاً من ثقب المفتاح، ويمشي على أطراف أصابعه حتى يصل إلى العتبة، يتوقف لاهثاً، يلمح مرجانة وهي تمد خيوط الصوف مترنّمة بصوت أحمر، فيصيبه الفرق. تلمحه مرجانة، فترفع في وجهه نعلها، فيأتيها متسحباً خانعاً ضارعاً. تصيح المرأة حانقة:

- يا جني، يا غدّار يا ناريّ اللحم، ألم آمرك بأن تظل في الصندوق ريثما أمكنك في فسحة الليل.

يضطرب بلاّر، يظهر ذلك من الغبار الثائر أمام النطع، لا أحد يبصر بلاّر غير مرجانة طبعاً، فهي التي روّضته وسجنته في قمقمها. يتخبط أمامها طلباً للصفح، يرسل صريراً حاداً كالجدجد. يلتفت الأسود فزعاً، يسأل عن مصدر الصوت. تسأله مرجانة إن كان سمع شيئاً، فيرد متلجلجاً:

- شيء يمزق شغاف أذني؟

تعلّق مرجانة:

- طبعاً، تسمع ذلك ولا تسمع هزيم الرعد البعيد، هو صوتهم الذي يفوق أصواتنا أضعافاً، صوت النار لا صوت الطين يا مسكين.

يمطّ الأسود شفتيه مستمرئاً ما بقي من حلاوة التين. لا يفهم شيئاً كثيراً في حضرة مرجانة، لكنه لا يستوعب المكان إذا خلا منها.

تقبض مرجانة على بلار من عنقه النحيل، ينكمش حتى يصير في حجم الجعل، يستحلفها ألاّ تضربه على رأسه.

- غفرت لك هذه المرة، لكن إياك أن تفعلها ثانية، أنا أعرف أنك تبحث عن الماء أيها الشقي.

تمسكه بحذر، تربطه بخيط من خيوط حزامها، وتعلقه في الخلال الفضي الذي يعلو صدرها، فيظل متأرجحاً كالمشنوق لا حيلة له. تواصل مرجانة غزل الصوف وهي تلعن بلار وأهله، والأسود يصيخ بأذنه اليمنى مرة وباليسرى مرة فلا يفقه من الأمر شيئاً.

* * *

تقفز زوجة ابنها وتقف غير بعيد منها مسرة إلى بعض جاراتها، وهي تشير إليها:

– ألم أخبركن أنها أفعى، إذ كيف لها أن تميز خيط الصوف الأسود في الظلام الدامس إلا أن تكون مبصرة بغيرها؟ وما صحبتها مع هذا الأسود إلا صحبة سوء، إنها من دون شك تستخدمه في بعض الأعمال التي لا ينفع فيها إلا عبد أسود أو ديك أسود أو خروف بلا علامة، حتى زوجي لم يسلم من أعمالها، يأخذ اللحمة السمينة من أمامي ويجري بها إليها، وينام عند الليل متوسداً محرمتها، ولا يحلف إلا باسمها.

* * *

تقول مرجانة للأسود عندما تلتقيه في الصباح وهو يجد السير إلى البحر: أنا خلصت ذمتي منكم، وأنا بريئة من ذنوبكم جميعاً، نصحتكم بأن تسدوا جميع النوافذ والكوى، وألاتبقوا إلا فوهة الباب تصلكم بالعالم الخارجي، وأن تجمعوا ما يمكن أن يكون لكم فيه سند وعون عند الحاجة، حتى إذا حل البلاء العظيم انكفأ كل في جحره، وأغلق عليه فوهة بابه، فلا يطوله الأذى. وأنا جمعت ما لا يمكن أن يشاركني فيه أحد حتى ابني؛ لأنه لا يملك أن يتخلص من حربائه تلك، وإني أرى الأفاعي والسحالي السامة زاحفة على أرضكم، ومبيدة زرعكم، وقاطعة نسلكم، وإني أكاد أرى الجبل ينهار، والرعد يهزم ويأتيكم بمطر أسود كالويل.

يريح الأسود عينيه المجعدتين على سماحة وجهها، ويكشر عندما يحط نظره على أفعى ذقنها، ويجد في السير وهو يقول:

– لو عدت المساء قبل حلول الخطب أعدي لي من ذلك التين.

* * *

رفع بلار سقف الصندوق بحذر فارتفع، ما كان من عادة مرجانة أن تترك الصندوق مفتوحاً. تسلل بخفة إلى الخارج، اختفى تحت الغربال، وظل يتلصص من خلال ثقوبه. أحس بخطوها فانكمش، لا يمكن أن تلمحه والغرفة مظلمة، لكنه كان يرى كل تفاصيل جسمها، ويبصر حركاتها حركةً حركةً: أجفانها، ونفسها وهو يعلو ويهبط، تلمظ شفتيها هناك عند الجرة، وقبضة الصوف لفتها ورصتها في الزاوية عند أكياس المؤونة، ورأى المفتاح يتأرجح في الخلال في المكان نفسه الذي شنقته فيه ذاك المساء. ستكون مطمئنة مادام المفتاح يتدلّى على صدرها وهي متوهمة أن بلّار في الصندوق. تمدّدت مرجانة، رصّت الوسادة جيداً تحت رأسها، بدأ النوم يراودها، لاحظ حركة هدبيها وهي تهدأ قليلاً قليلاً.

رفع الغربال وتسلل إلى الخارج، حلقه ملتهب، وشفتاه مشققتان كالسبخة. زحف إلى الجرة زحفاً وهو يحاذر أن يحدث ما يريب نوم مرجانة. وصل إلى الماء، تسلق الجرة ثم نزل فيها فاتحاً فمه. لم يعُدْ يهمه إن كان أحدث سقوطه فيها شقشقة. شرب بكل ما أوتي من عطش، شرب إلى أن لعق لسانه قعر الجرة، ثم هبّ واقفاً كالسياط ورأسه يلامس سقف الجرة. لم تكن مرجانة واعية، فكر أن يحرقها، أو أن يشنقها كما فعلت به ذاك المساء، لكنه لم يفعل. ثم خطرت بباله فكرة.

* * *

خرج من البيت ووقف في الباحة، ثم جعل ينادي الحجر فينصاع إليه مستجيباً من كل صوب، ثم أمر الحجرات أن تسدّ فوهة الباب ففعلت في الحين، وأشار بإصبعه نحو الباب فانسدّ بصفع قاس لا تنفع معه المعاول ولا الفؤوس، ثم طار في الظلام.

جاء الأسود في الصباح وطاف حول البيت، فهاله ما رأى، قال في نفسه مستاءً: فعلتها مرجانة الخبيثة، حصّنت نفسها ولم تأبه لأمري. أما كان لها أن تخبئني معها والكارثة قادمة؟ هي تعلم أني يتيم إذا غابت، وبمن تراي أستجير وسمعي لا يدرك الرعد إذا اقترب؟

نظر إلى السماء، فرأى مزيداً من السحالي والأفاعي والغيلان. نزع خفّه وهرع يجري مستجيراً بالبحر.

# ملاك

محمد جبر الحربي
الرياض - السعودية

اجلسي يا ملاكْ.
اجلسي ها هنا
أوْ هنا
أوْ تعالِ ارسمي وجهَ نهرٍ هنا
أوْ تعالَيْ على
غيمِ حلمٍ هناكْ.

اجلسي يا أميرَهْ
اجلسي فوق روحي
ثمّ داوي بخطوكِ بين الجراحِ جروحي
امنحي للصباحِ عبيرَهْ
واجدلي للمساءِ ضفيرهْ
شيدي بالضلوعِ قصوراً
ومن كبرياءٍ علاكْ.

اجلسي يا ملاكْ..
اجلسي وتماديْ قليلاً
أوْ فتمادي كثيراً
هذّبي غربة العينِ.. عينيَّ
واللهِ إنّ العيونَ عيونُكِ
إمّا تعتّقَ بالوردِ فيها نداكْ.

اجلسي ها هنا
واخرجي من هنا
وادخلي من هناكْ.

والعبي لعبَ قطٍّ شقيٍّ
يحاولُ نزعَ الشباكْ.

اجلسي يا شقيّهْ
واخلطي الأحرفَ العالياتِ برأسي
والعبي باللغهْ
كي تكون القصيدةُ موّالَ عينيكِ
عاليةً وبهيّهْ..



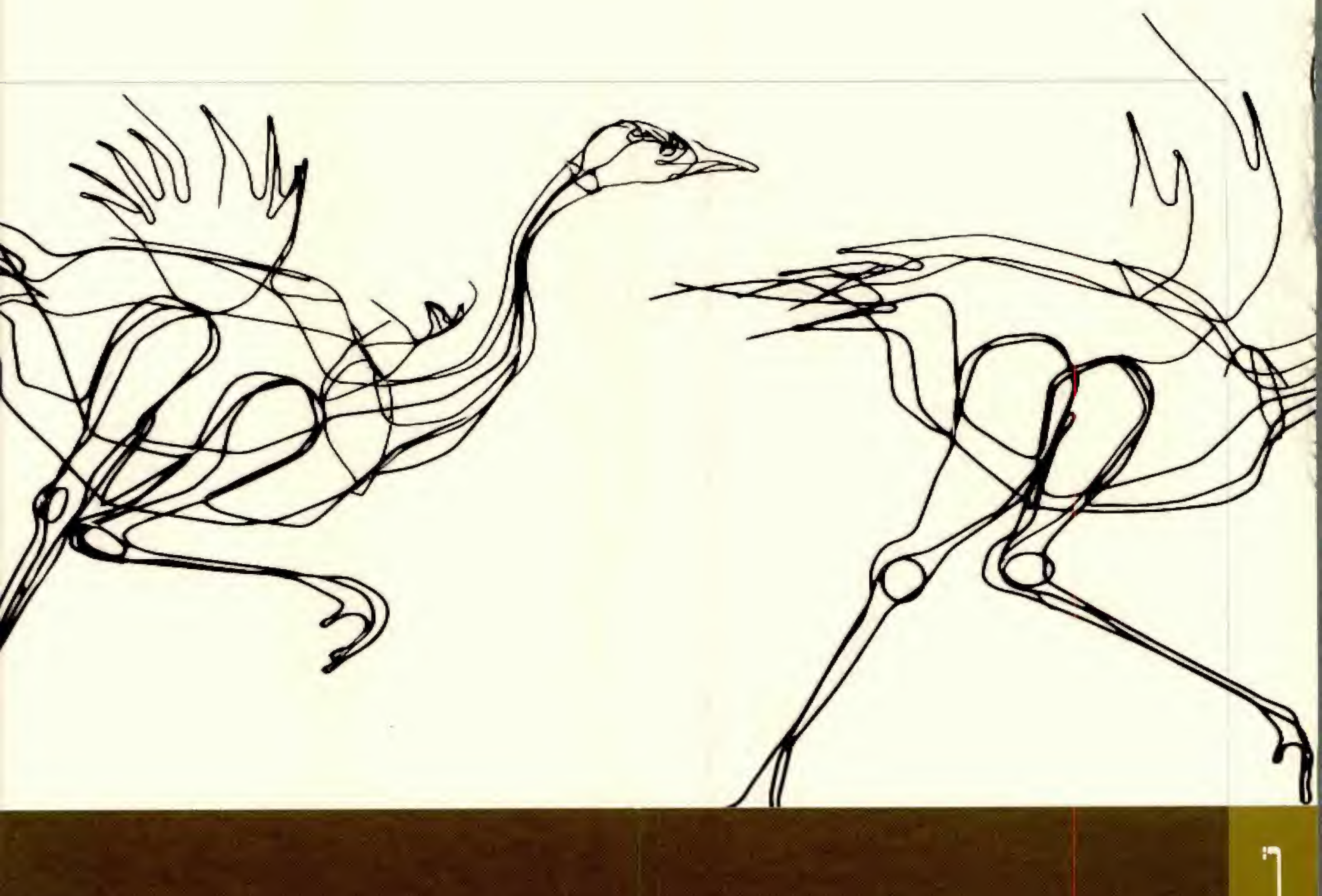
نسّقتها يداكْ.

واجلسي
أنتِ مائي
والنجومُ سمائي
والعبي..
إنّها عندما تلعبين ثراكْ.

اجلسي يا ملاكي
واسبحي في الثواني
فالتفافُ السنين فداكْ.

والصبايا يغرْنَ من الضوءِ
أنْ قدْ تجلّى عليهنّ ليلاً سنَاكْ.

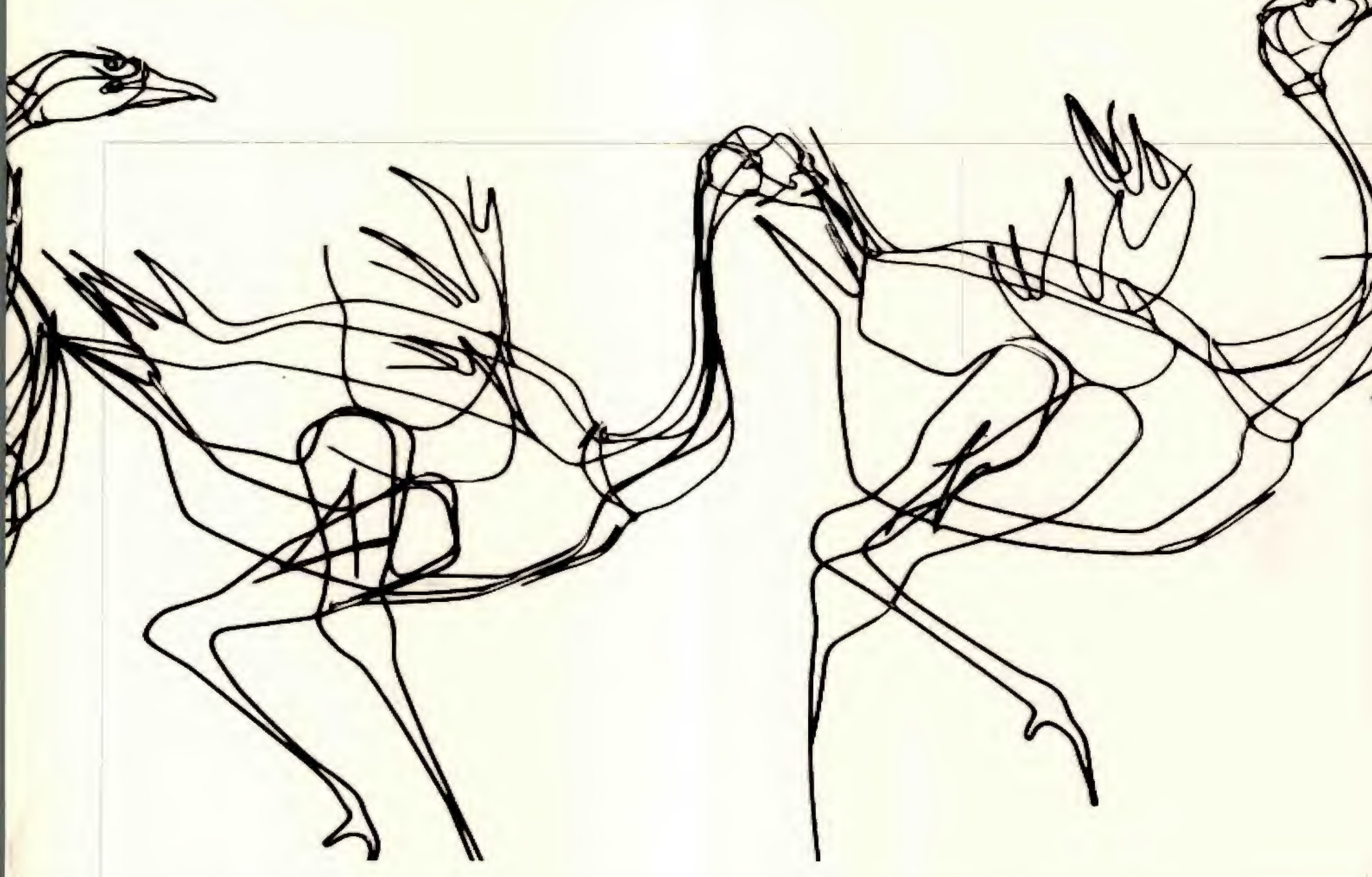
فاجلسي
اجلسي
اجلسي يا ملاكْ.



تــراث

# النعام
## لآلئ الرمال العربية

أحمد إبراهيم البوق
الطائف - السعودية



حين أنتقل من مجاز العنوان إلى واقع الحال، فإن بيض النعام في رمال صحراء شبه الجزيرة العربية لا يشبه شيئاً أكثر من لآلئ في أصدافها تعكس ضوء الشمس كالمرايا. وبين بيض كالنهار و(ظليم) كالليل الدامس يتجلى تناقض الإنسان العربي في صحرائه في العلاقة مع طائر بثّ في الصحراء روحاً تجلّت في الشعر الجاهلي وجمالياته الفنية ثم غيّبها الموت. فآخر نعامة عربية اختفت من شبه الجزيرة العربية في السبعينيات من القرن الماضي، ومن استقراء الإشارة إليها في كتب الرحّالين الغربيين الذين عبروا الجزيرة العربية خلال القرنين الماضيين، فقد كان ينتشر في الجزيرة العربية شكلان من النعام: أحدهما جنوبي على حافة الربع الخالي، ومن المحتمل أنه انقرض بين عامي ١٩٠٠ و١٩١٠م، والآخر شمالي من صحراء النفود إلى الصحراء السورية، ويرجح أنه انقرض في عام ١٩٣٩م على رغم بعض التسجيلات غير الموثقة على الحدود السعودية الأردنية في عام ١٩٦٦م.

ويتميّز النعام العربي بأنه أصغر حجماً من مثيله الإفريقي، وقد وصفه اللورد روتشيلد Rothschild في عام ١٩١٩م، ثم بعدها بثلاثة عقود صنّف تحت نوع من النوع الإفريقي أحمر الرقبة StruthioCamelus syriacus، وهذا الاسم العلمي للنعام العربي يمتزج بين جنس النعام ونوع الجمل، وينسبها إلى سورية. ولكن هذا المزج العلمي ذو أبعاد تاريخية عميقة في التراث العربي سبقت هذا التصنيف بقرون؛ إذ يرى القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) أن النعامة «حيوان مركب من خلقة الطير والجمل، أخذ من البعير العنق، ومن الطير المنقار والجناح والريش». أما الجاحظ، فيرى في كتابه (الحيوان) أن النعامة «لا طائر ولا بعير، فيها من المنسم والشق في أنفها ما للبعير، وفيها من الريش والجناحين والذنب والمنقار ما للطائر». أما أهل فارس، فيسمونها (شترمرغ)؛ أي: طائر وبعير. ومن ذلك قول يحيى بن نوفل:

ومثل نعامة تدعى بعيراً
تعاصينا إذا ما قيل طيري
فإن قيل احملي قالت فإني
من الطير المربّة بالوكور

أي: لا تحمل؛ فهي طائر، ولا تطير؛ فهي بعير.

وتسمى أنثى النعام (قلوص)، وهو من أسماء النياق. وتسمى

نعامة، وهقلة، وهيقة؛ وهي تعني الطويلة، ونقنقة، والربداء؛ وهو اسم مشترك للذكور والإناث يعني السواد الذي يعتريه بياض في ألوانها، وهو وصف دقيق للون النعام. وفي ذلك يقول الأعشى:

أو صعلةٌ بالقازتين تروّحت

ربداء تتّبع الظليم الأربدا

والصعلة: صغيرة الرأس، والقازتان: اسم موضع، وتروّحت؛ أي: تنقّلت. ويسمى الذكر: الصّعل؛ أي: صغير الرأس. وفي ذلك يصف زهير بن أبي سلمى ذكر النعام بأن رأسه الصغير مملوء بالهواء؛ أي: لا مخ فيه، فهو كالمجنون، فيقول:

كأنّ الرّحل منها فوق صعلٍ

من الظلمانِ جُؤْجُؤه هواءُ

أما أشهر أسماء ذكور النعام فهو (الظليم)؛ لسواد لون ريشها، ومن أسمائه: هَيقٌ، وهِقلٌ، ونقنق، والخَفيددُ. وكذلك من النعام: الأَصَكّ، والصَّكَك، والصكاء؛ اصطكاك العرقوبين، والنغضُ الذي يزحف في مشيته، والمعلّم والمصلُوم الذي لا أذن له.

وفي ذلك وصف جميل لعنترة بن شداد في معلقته يشبّه ناقته السريعة بذكر النعام الذي يكسر الآكام لشدة وطئها، ويصفه بالعبد لسواده، والذي لا يحسن النطق، ويرعى قطيعاً من الجمال اليمانية، وهو تشبيه لصغار النعام وهي تتبع الظليم بمتابعة أعلى رأسه، وهو يشبه في سواده هودج مراكب النساء، كالخيمة المتحركة فوق مكان مرتفع، ويصفه بأنه صغير الرأس يتعهد بيضة في موقع (ذي العشيرة)، وهو بريش جناحيه الطويل الأسود يشبه العبد الذي له فراء طويل. وهو توصيف دقيق من الناحية العلمية؛ إذ من سلوك النعام أن يتناوب الذكر مع الأنثى في حضن البيض، فتحضنه نهاراً، ويحضنه مساءً؛ لأن لونه الأسود يجذب حرارة أكبر لحضن البيض. ويشبه الشاعر تغطية



**النعامة «لا طائر ولا بعير، فيها من المنسم والشق في أنفها ما للبعير، وفيها من الريش والجناحين والذنب والمنقار ما للطائر»**

الذكر للبيض بجناحيه الطويلتين بالفراء، وحركة الفراء على جسم العبد هنا غاية في الدقة الوصفية؛ إذ لا غدد عرقية في جلد النعام، فيحرّك جناحيه بين حين وآخر للتهوية، كما يحرّك مرتدي الفراء فراءه.

أما حركة الفراخ ذات اللون البني الفاتح، الذي يشبه لون الإبل اليمانية، خلف الأب (الظليم)، فهي تشبه حركة الإبل خلف الراعي تتّجه خلفه أينما يسوقها. وصغار النعام تتحرك في جماعة خلف الأب والأمّات بعد الفقس كما تتحرك الإبل. وتظهر الصور الحديثة للنعام المعاد توطينه في محمية محازة الصيد غرب المملكة العربية السعودية (١٦٠كم شرق مدينة الطائف) بصرياً كما أظهرها عنترة لغوياً؛ إذ يقول:

وكأنّما تَطِسُ الإكامَ عَشيّةً
بقريب بين المَنسِمَيْنِ مُصَلّمِ
تأوي له قُلُصُ النعام كما أوت
حِزَقٌ يمانيةٌ لأعجم طِمطِمِ
يتبعن قُلَّةَ رأسه وكأنّهُ
حِدجٌ على نعشٍ لهنَّ مُخيَّمِ
صَعلٍ يعودُ بذي العُشَيرة بيضَه
كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلَمِ

وإذا ما عرفنا أن عنترة عانى العبودية زمناً، فإن صورته تمتزج بصورة الظليم في مشهد فني متقن.

أما فرخ النعام، فيسمى: رأل، والجمع: رِئال، وأدنى العدد أرؤل. وفي ذلك يقول الفضل بن قدامة:

وراغتِ الربداءُ أمّ الأرؤلِ

كما تسمّى صغار النعام الحَفّان، أما التي تحاتّ أطراف ريشها من النعام فيسميها العرب (الحَصّاءُ). ولذي الرُّمّة وصف جميل لذكور النعام الطويلة (الهجنّع)، التي يشبه ريشها الأسود القطائف السوداء المخملة، وهي ما يلبسه العرب، التي لها أطراف مسدلة، ويختلط سواده بالبياض. وهذا وصف غاية في الدقة لريش نعام الذكور؛ إذ تنتهي أطراف الأجنحة ذات الريش الأسود بريش أبيض. يقول ذو الرُّمّة:

هَجَنَّعٌ راحَ في سوداءَ مخمَلة
من القطائف أعلى ثوبِهِ الهُدُبُ

وذكر كذلك ذو الرّمة أن قوائمه ورأسه دقيقة على رغم ضخامة





جسمه وطوله وغلظته، فيقول:

شَخْتُ الجزارةِ مثل البيت سائِرُهُ
من المسُوحِ خِدَبٌّ شَوقَبٌ خَشِبُ

أما أجمل وصف لطول ساقي النعامة، التي تُجمع على: النعامات، والنعام، والنعائم، ما قاله امرؤ القيس في وصف حصانه بأن له ساقين طويلتين كساقي نعامة في البيت الشهير من معلقته:

له أيطلا ظبي وساقا نعامةٍ
وإرخاء سرحانٍ وتقريب تتفُلِ

أما بيض النعام، فتشبّه به النساء في الشعر العربي القديم، وله دلالة على الصحة والسلامة عن الطمث والصيانة والستر؛ لصون الطائر بيضه وحضنه، ولصفاء اللون ونقائه؛ لأن البيض يكون صافي اللون نقياً إذا كان تحت الطائر. وفي ذلك يقول الفرزدق:

خرجن إليّ لم يطمثن قبلي
وهنّ أصحُّ من بيض النعام

أما بياض بيض النعام، فتشوبه صفرة يسيرة كألوان بعض النساء. وفي وصف ساحر لمخالطة البياض بالصفار يقول ذو الرّمة:

كأنها فضةٌ قد مسّها الذهبُ

أما امرؤ القيس، فيصف حبيبته بأن بياضها يخالطه صفرة خفيفة كبيض النعام، فيقول:

كَبِكرِ المُقاناة البياضَ بصفرةٍ
غذاها نمير الماء غير المحلّلِ

ولأبي يعقوب الخزيمي بيت في هذا السياق:

بيضة خِدرٍ مكنونةٍ برزت
للناس منشورةً غدائرها

بيض النعام العربي المنقرض لا يزال موجوداً تحت رمال الصحراء في الربع الخالي، تكشفه الرياح حيناً فيبدو كاللؤلؤ في الأصداف، وتدفنه أحايين كثيرة.

وإذا هبطت من عالم الخيال في الشعر إلى عوالم الواقع، فإن للنعام في العالم ثلاثة أنواع: أحمر الرقبة، وأزرقها، وهما بريّان، فيما دجّن النوع أسود الرقبة قبل ١٥٠ سنة، وهجّن من النعام العربي المنقرض، وهو النوع الشائع في مزارع النعام، وأكثرها شهرةً في جنوب إفريقية التي تصدّر ٩٨٪ من منتجات النعام إلى العالم؛ إذ تمتاز لحومها بقلة الكولسترول، وريشها بخاصية الكهرباء الساكنة؛ لذلك يدخل في صناعة عدد من الأجهزة الإلكترونية الحساسة. أما الجلد، فمادة أساسية لعدد من الصناعات الجلدية.

وكانت الجزيرة العربية قديماً تصدر ريش النعام العربي إلى القاهرة وأوربا عبر ميناء جدة وعدن، وكان يصنف الريش إلى ثلاثة أشكال: الحلبي، والحجازي، واليمني. وقد ذكر ذلك بتفاصيل أكبر في كتاب (النعائم وتربية النعام) لجوليوس دو موزينتال وجيمس أدموند هارتنغ الصادر في لندن في عام ١٨٧٧م. ومن المؤكد أن تلك

بيض النعام لا يزال موجوداً تحت رمال الصحراء



التجارة البائسة عجّلت بانقراض النعام من الجزيرة العربية في الثلث الأخير من القرن العشرين.

وقد قامت الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها في المملكة العربية السعودية بتنفيذ مشروع لإعادة توطين طيور

مشروع توطين النعام تتبناه الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية

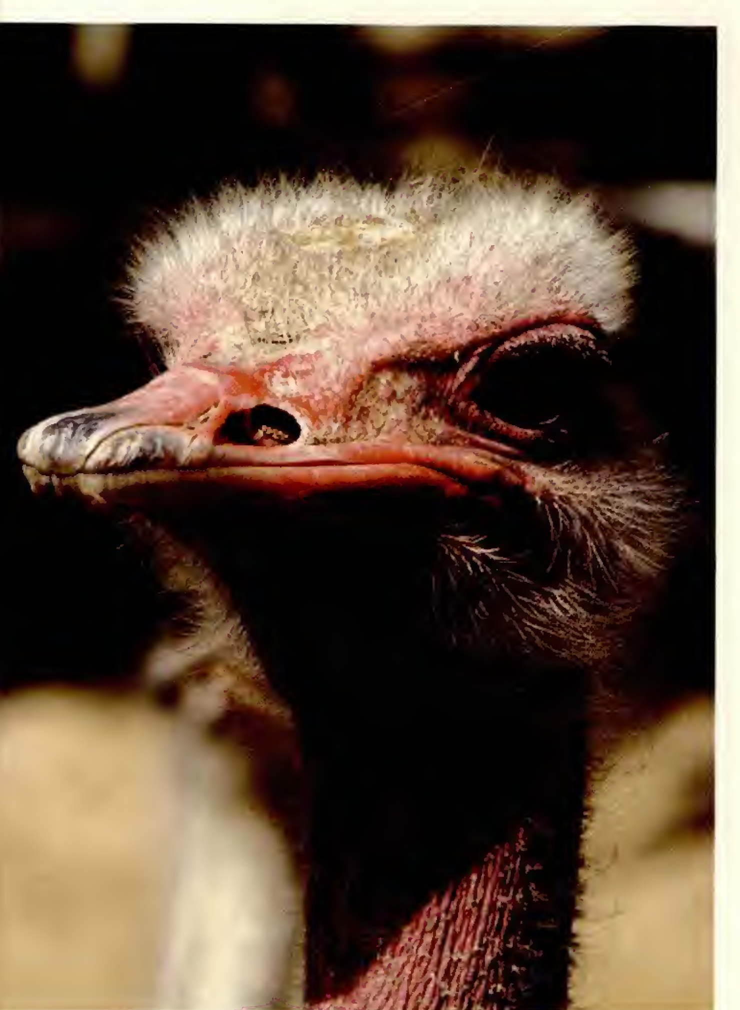


النعام أحمر الرقبة وإكثاره، وهو الأقرب إلى النوع العربي وفق عدد من المصادر التاريخية؛ إذ يقول ابن منظور (توفي سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م) في (لسان العرب): «يتحول عنق وساقا الظليم إلى الحمرة الغامقة خلال فترة التسافد، الجلد فحسب وليس الثوب على خلاف حال الأنثى». وهو بالفعل كذلك، فنتيجةً لتغيّر في الهرمونات الذكورية يظهر هذا اللون في الذكور في موسم التزاوج. أما القزويني (٦٠٢-٦٨٢هـ/ ١٢٠٣-١٢٨٣م) في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات)، فيقول: «في الصيف عندما يبدأ التمر بالاحمرار يتحول لون النعامة إلى الحمرة، ويظل على هذا الحال حتى نهاية موسم التمر». وأظنّ الحقيقة قد لاقت وجافت كلام القزويني؛ فلون الذكور يتحول إلى الحمرة في موسم التزاوج، وهو غالباً في الشتاء، وتفقس الفراخ في الربيع، وليس في الصيف عند احمرار الرطب.

وقد بدأ مشروع إكثار النعام أحمر الرقبة في المملكة بين

بيض النعام العربي المنقرض لا يزال موجوداً تحت رمال الصحراء في الربع الخالي، تكشفه الرياح حيناً فيبدو كاللؤلؤ في الأصداف، وتدفنه أحايين كثيرة

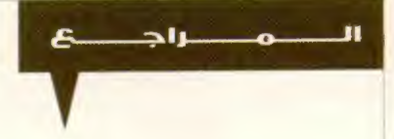




عامي ١٩٨٨ و١٩٨٩م في المركز الوطني لأبحاث الحياة الفطرية في الطائف. وفي عام ١٩٩٤م نقلت مجموعات منه إلى محمية محازة الصيد ١٦٠كم شرق الطائف، وتقدّر مساحتها بـ٢٢٤٤كم٢ مسيّجة بالكامل. وتقدّر أعداد النعام المطلق في المحمية بـ ٩٦ نعامة، تكاثرت طبيعياً، ووصلت أعدادها في أقصى حالاتها إلى نحو ١٥٠ نعامة، تزيد وتنقص وفقاً لتقلب حالات الجفاف والمطر في المناخات الصحراوية. وقد قدّر عدد البيض في أعشاشها في المحمية بين ٦ و١٩ بيضة لكل عش، يحضنها الأبوان بين ٤٠ و٤٥ يوماً. ويحدث أن تضع أكثر من أنثى بيضها في عش واحد، ولكن إحداهن تتناوب مع الذكر على حضن البيض، وقد يصل بذلك أعداد البيض في بعض الحالات إلى أكثر من ٥٠ بيضة، يصعب حضنها جميعاً في الوقت نفسه. وعند الفقس تخرج الفراخ بالتتابع في ٤ أو ٦ أيام، تكون فيها الفراخ محضونة مع البيض الذي لم يفقس تحت الأم أو الأب الحاضن. وقد يحدث أن يساعد الزوجان على التعجيل بخروج الفراخ الأخرى من البيض بتكسيره، وأكل أجزاء من قشره، ثم يبدأ التحرك الجماعي بحثاً عن المرعى، وإذا التقت عائلتان يحدث صراع بين الذكور والإناث، يضم المنتصرون فراخ المهزومين إلى فراخهم، ويتحركون كقطيع ضخم من الفراخ مع الأبوين المنتصرين، بينما يُطرد المهزومان بعيداً.

أما نطاق الحركة اليومية، فأوضحت الدراسات في المحمية أنها نحو ٣٦٣كم٢، مع اختلافات معنوية في مدى الحركة خلال الفصول المختلفة؛ ففي الأجواء الباردة المطيرة من فبراير إلى

مايو تتحرك ٩٧كم٢، بينما في الأجواء الباردة الجافة من أكتوبر إلى ديسمبر تتحرك ٥٦٣كم٢. وكذلك هناك اختلافات في حركة الذكور والإناث، وتؤدي الذكور رقصة التزاوج خلال الموسم لجذب الإناث للتزاوج. وفي الرقص، تنفش الذكور ريشها، وتمايل رقابها، وتجلس وتقف في حركات إيقاعية جاذبة. كل هذا الثراء المعرفي الذي أتيح بإعادة توطين هذا الطائر المذهل لا يتجاوز قراءة الصفحات الأولى في كتاب النعام الكبير، وهو سبيل لثراء جمالي وثقافي طال غيابه عن الأدب العربي الحديث.



## المراجع


- Re-introduction of the red-necked ostrich. Struthio camelus camelus in Mahazat as-Sayd Protected Area in Central Saudi Arabia. M. Zafar-ul Islam. Khairy Ismail and Ahmed Boug. Zoology in the Middle East. 44. 2008
- The distribution of the extinct Arabian ostrich Struthio camelus syriacus Rothschild. 1919. M.C. Jennings. Fauna of Saudi Arabia. 8. 1986.
- الوحوش لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (١٢٢-٢١٦هـ)، تحقيق: أيمن محمد علي ميدان، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٩٠م.
- النعام العربي في المحميات الطبيعية، خيري إسماعيل، مجلة الفيصل العلمية، المجلد ٢، العدد٢، أغسطس – أكتوبر ٢٠٠٤م.
- ريش النعام وسادة لأحلام الانقراض، (باتريك بالات)، مجلة الوضيحي، العدد ٣٣، ٢٠٠٥م.
- شرح المعلقات السبع، أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، المكتبة الفيصلية.
- ربوع الحياة في الربع الخالي، أحمد إبراهيم البوق، مجلة القافلة، مايو – يونيو ٢٠٠٤م.




**الذاكري، محمد فؤاد/ طب الأسنان والجراحة الفموية في الحضارة العربية الإسلامية.. دمشق، وزارة الثقافة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ٤٠٠ص.**

حرص المؤلف في هذا الكتاب على تقديم موسوعة لطب الأسنان في التراث الطبي الإسلامي، إضافةً إلى الجراحة الفموية والوجيهة الفكّية، وهو اختصاص دقيق أتقنه الأطباء والجراحون العرب القدامى ومارسوه بمهارة. وقد التزام المؤلف العرض الدقيق للمادة الطبية، بغية إبراز جانب علمي تراثي مهم وتوضيحه، وتقديم صورة صحية وواقعية من دون غلوّ أو إسراف.

ويتطرق الكتاب بشكل مفصل إلى طبابة الأسنان العلاجية والوقائية والأدوية والعقاقير والوصفات، إضافة إلى الحالات الجراحية الخاصة بالفم والوجه والفكين. وجمعت مادة الكتاب من أمات مصادر الطب العربي، مع تحليلها ودراستها، وتركز الاهتمام في التفاصيل العملية والمشاهدات السريرية.

ويتألف الكتاب من ثلاثة أقسام: الأول عنيّ بطب الأسنان في التراث الطبي العربي، ويتضمن تسعة فصول، منها: مفاهيم طب الأسنان في التراث العربي، وأسطورة دود السن عبر العصور القديمة، والخبرة الطبية في التشريع الإسلامي، ومسيرة المصطلح الطبي السني في الحضارة الإسلامية، وجهود الأطباء العرب القدامى في مكافحة المخدرات، وغير ذلك من الموضوعات الطبية.

والقسم الثاني عرض شامل للحالات الجراحية الفموية وعلاجها، ومن موضوعاته: جراحة الفم والوجه والفكين في التراث الطبي، والنهج العلمي التطبيقي للجراحين العرب والمسلمين، والسرطان والأورام، وغيرها.

والثالث عرض لأشهر الأطباء والجراحين وأعمالهم الطبية، ومنهم: علي بن ربن الطبري، وحنين بن إسحق العبّادي، وقسطا بن لوقا البعلبكي، وابن الجزار القيرواني، وأبو بكر الرازي، وعلي بن العباس المجوسي الأهوازي، وابن سينا، وسعيد بن وهبة، وابن هبل البغدادي، وغيرهم.




استطلاع

# كوانجو.. العرب يعودون

معاوية عبدالرحيم كنه
الرياض - السعودية




فتيات من ماليزيا قدمن لمشاهدة مسجد هواي شنغ

يشي أول مشهد تشاهده عند وصولك إلى مطار (باي وين) في جنوب الصين بما ستراه من صور، وتسمعه من حكايات: الوجوه الدائرية الصفراء وهي تحاول أن تحتوي قوافل القادمين من أصقاع العالم، ثم التفاصيل الكثيرة التي يمكن أن تنطوي داخل هذا المشهد. إنها لحظة فريدة لرؤية مشهد تاريخي قديم يعود من جديد.

لم أستطع، وأنا أقطع المسافة الطويلة بين مطار (باي وين) ووسط المدينة، أن أبعد عن ذهني حكايات رحلات التجار العرب الأولى إلى الصين، وكذلك علاقتهم بمدينة (كوانجو) الواقعة في الجنوب الصيني، كما لم أستطع أن أعرف سر هذه الأسماء الكثيرة لهذه المدينة إلا عندما بتُّ واحداً من سكانها أياماً قلائل.

في الجزء الشمالي من دلتا نهر تشوجيانغ (اللؤلؤ) في جنوب الصين ترقد كوانجو؛ هذه المدينة التاريخية والتجارية المهمة، التي تعدّ حاضرة مقاطعة كوانغ دونغ، وأكبر مدن الساحل الجنوبي للصين وموانئه.

لقد حظيت هذه المدينة طوال تاريخها الطويل بكثير من الأسماء التي أطلقها عليها زائروها الذين مرّوا بها، وفي مقدمتهم التجار العرب، الذين كانوا يطلقون عليها خانفو، وكذلك الأوربيون الذين اعتادوا إطلاق اسم كانتون عليها، ثم الآسيويون الذين سمّوها قوانغتشو. أما اليوم، فإن معظم المسافرين إليها، وكذلك العاملون في مجالات السفر والسياحة، يعرفونها باسم كوانزو.

## مشهد الأمس

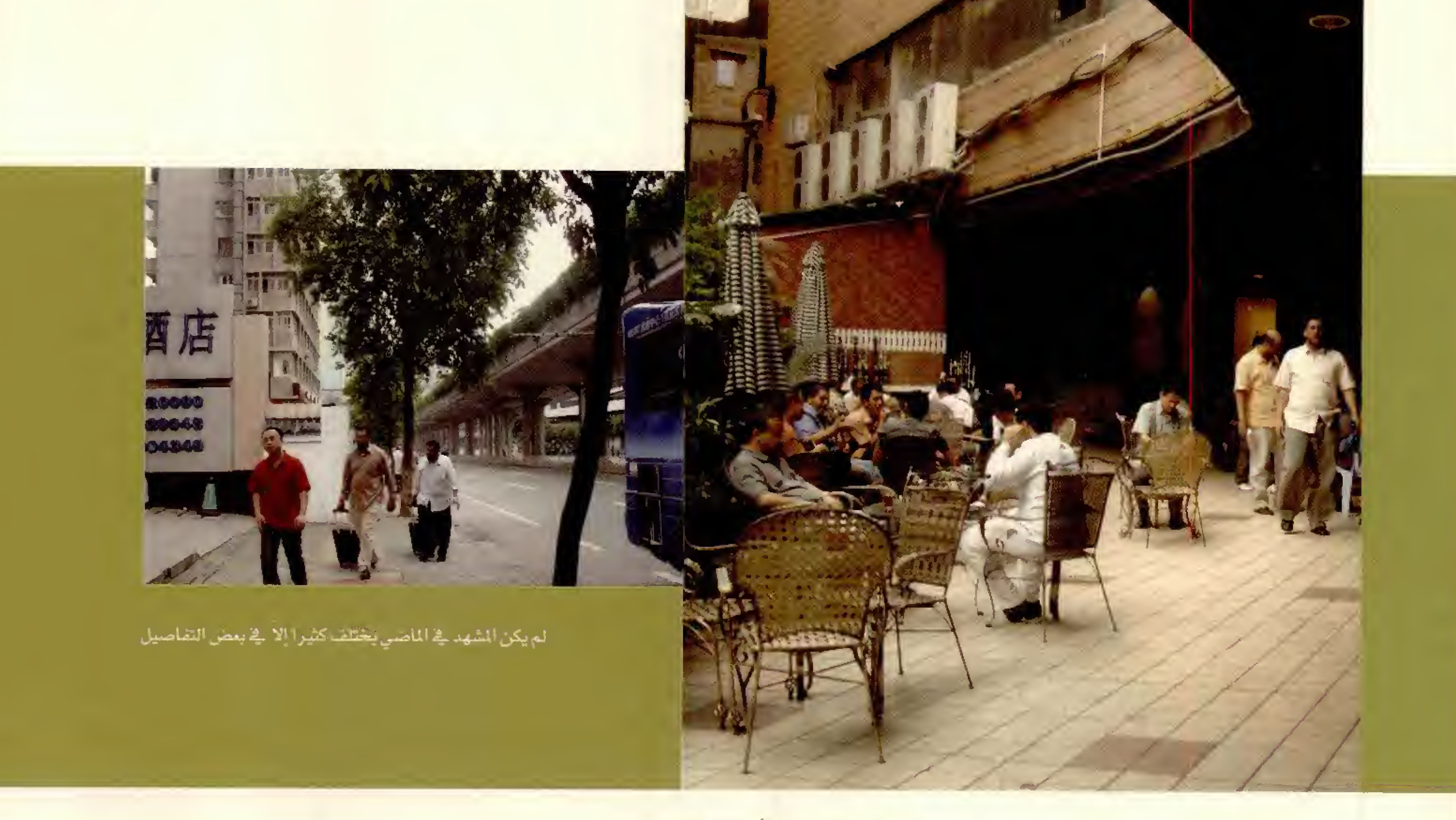
يبدو شارع (قوانغتا) رقم (٥٦) في الجزء القديم من كوانجو مثل متاهة عربية عتيقة تنبض بالحياة البسيطة؛ حياة تمتد جذورها إلى قرون بعيدة، مزيج من خيوط عربية متباينة من الجزيرة العربية والشام وغيرها. يكفي أن تتذكر أن في هذه المدينة كان ينسج الحرير، وتباع الفخاريات، وتعقد الصفقات، وأن ترى أن كل شيء فيها حتى الأشياء البسيطة تسمو وتتحول إلى أشياء حميمة تذكّرك بقوافل التجار العرب المحملة بكل نفيس.

يرجع ميلاد الحي الإسلامي الذي يقع في شارع قوانغتا إلى أكثر من خمسة عشر قرناً. فذات يوم من تلك الأيام، كان هذا الحي يشهد أكبر تجمع للعرب؛ إذ تقول المصادر العربية القديمة: إن أكثر من مئة ألف من التجار والدعاة العرب استوطنوا في هذا الحي، وتحديداً إبان حكم أسرتي تانغ (٦١٨-٩٠٧م) وسونغ (٩٦٠-١٢٧٩م). في تلك الأيام كان العرب يطلقون على كوانجو اسم خانفو، فيما كان الغربيون يطلقون عليها اسم كانتون؛ اعتماداً على تسمية العرب لها بسبب مناطقها المفصولة، بينما كان العالم كله يطلق على المدينة اسم (ميناء العرب).

وقد بلغ العرب من النفوذ والقوة في كوانجو إلى الحدّ الذي قبل فيه أحد أباطرة الصين بأن يخضع العرب القاطنون في المدينة لقوانين الشريعة الإسلامية وأحكامها، وليس للقوانين الصينية، وذلك في حال نشوب أيّ نزاع بينهم، أو وقوع أيّ جريمة. ليس هذا فحسب، بل قام هذا الإمبراطور بتعيين قاضٍ من بينهم.

## سحر الماضي

ما زال شارع قوانغتا يحتفظ إلى اليوم بسحر الماضي البعيد وروعته، وما زالت أشعة الشمس تغمر المتاجر والبيوت القديمة الواقعة




لم يكن المشهد في الماضي يختلف كثيراً إلا في بعض التفاصيل

مجموعة من العرب في أحد المقاهي

على امتداده، وصيحات الباعة تنطلق من بينها بين الفينة والأخرى.

حينما تطأ قدماك هذا الشارع يبدو لك كل شيء عربياً: ملامح الباعة، وأشكال الحوانيت، وأنواع البضائع، حتى أنفاس القاطنين فيها، وحينها يداخلك شعور قويّ أن العرب تركوا بعض أسرارهم هنا بين سكان هذا الحي.

ليس هذا كل شيء، فثمة أدلة أخرى تؤكد ما ذهبنا إليه؛ فقوانغتا تعني باللغة الصينية (المنارة)، وهكذا يعرف الناس هنا هذا الشارع باسم شارع المنارة؛ إذ ما زال المسجد الذي بناه العرب بمنارته البيضاء السامقة منذ أكثر من ألف وأربعمئة عام يقبع في مكانه، وما زالت تقام فيه الصلوات الخمس.

عند إحدى بوابات المسجد يسترعي انتباهك لوحة قديمة منقوشة (يذكر التاريخ أنها نُقشت في عام ١٣٥٠م)، تقودك هذه اللوحة إلى معرفة التفاصيل كاملة. جامع هواي شنغ، الذي يعني بالصينية (مسجد الحنين إلى النبي صلى الله عليه وسلم)، بُني إبان حكم أسرة تانغ، غير أن هذه المعلومات المنقوشة على اللوحة تبدو لدى آخرين غير دقيقة؛ إذ تشير بعض المصادر العربية والصينية الأخرى إلى أن المسجد بُني في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الذي قام ببنائه هو الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، الذي وصل إلى هناك - حسب هذه المصادر - في أول بعثة إسلامية إلى الصين إبان حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه - رضي الله عنه - مات ودفن هناك، ومعه عدد من الصحابة حيث مازال قبره موجوداً يزوره المسلمون الصينيون.

لكن أحداً لا يمكنه إثبات هذه المعلومات؛ إذ ليس في التاريخ الإسلامي ما يدلّ على حقيقة وصول الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص إلى الصين، أو دفنه هناك.

وهكذا، فإن العارفين بتاريخ المدينة يؤكدون ما ذهبنا إليه، وما ذهبت إلية المعلومات المدوّنة على اللوحة، ويتفقون أن المسجد بُني في القرن الأول من الهجرة، تماماً كما تقول اللوحة المذكورة.

أما تكرار اسم سعد هنا، فيرجع كما يؤكدون إلى اسم التاجر العربي الذي أسهم في بناء المسجد؛ إذ يروي هؤلاء أن تاجراً عربياً يُدعى سعداً كان يتردد إلى الصين بهدف التجارة، وقد دعا الإمبراطور الصيني (وي) إلى الإسلام، فقبل الأخير الدعوة، ودخل في الدين، ونادى ببناء المسجد.

## عهود من الازدهار

بالعودة إلى التاريخ، فإن التعاملات التجارية بين العرب والصين قد شهدت ازدهاراً لافتاً منذ ظهور الإسلام. واستمر ذلك في العهود التالية: الدولة الأموية، والدولة العباسية؛ إذ استوطن كثير من العرب في كوانجو وأنحاء أخرى من الصين؛ لأن المدينة كانت مدخل هؤلاء الرئيس إلى البلاد.

لم تتوقف العلاقات بين العرب والصين عند حدود التجارة، بل امتدت إلى حدود أخرى؛ إذ تفيدنا كتب التاريخ أن كثيرين من التجار العرب صاهروا أهل كوانجو، وأدخلوا عدداً من سكانهم في الدين الإسلامي، وهذا ما امتد أثره إلى بقية أنحاء البلاد؛ إذ نجد اليوم نحو عشر قوميات صينية تدين بالإسلام. في المقابل، فإن الصينيين قاموا برحلات مشابهة إلى البلاد العربية عزّزت من وشائج تلك الصلات، ودفعتها إلى الازدهار، وتوّجت فيما بعد حينما خصّص الصينيون أسطولاً حربياً خاصاً لحماية حركات السفن التجارية العاملة بين كوانجو وعدد من الموانئ العربية المعروفة في ذلك الوقت؛ مثل: عدن، وسيراف، وصحار، وموانئ البحرين، غير أن هذه الصلات ما لبثت أن انحسرت حينما بدأت القوى الأوربية الاستعمارية بالظهور على مسرح الأحداث العالمية، ابتداءً من القرن السابع عشر؛ مما أدى إلى انكفاء كل من الصين والعرب على نفسيهما مع حلول القرن التاسع عشر.

## ذاكرة المدينة

منذ أكثر من ٢١٠٠ عام لم تكن كوانجو سوى قرية صغيرة غير محدّدة الهوية، وذلك قبل أن تنضم إلى الصين وتصبح ميناءً مهماً يمرّ عبره التجار العرب، وآخرون من بلاد فارس والهند، ثم يصل إليها بعد ذلك البرتغاليون في القرن السادس عشر في أثناء بحثهم عن مصادر جديدة لتجارة الحرير، والفخاريات، ثم البريطانيون في القرن السابع عشر الميلادي، ثم الفرنسيون والهولنديون في القرن التالي مباشرةً.

في عام ١٨٤٢م، ووفقاً لاتفاقية (نانكين)، حصلت بريطانيا على امتيازات تجارية كبيرة في هذه المدينة، وأصبحت بموجبها كوانجو مفتوحة للعمليات التجارية الخارجية، التي كانت تتم بصعوبة في بقية المدن الأخرى، ولعل هذا ما أعاد إلى المدينة حيويتها التجارية التي عُرفت بها منذ القدم. لكن أمراً آخر حدث بعد ذلك، فأصبحت بموجبه المدينة واحدة من أشهر مدن الصين وموانئها.

ففي عام ١٩١١م، أعلن الزعيم صن يان سين من المدينة ميلاد جمهورية الصين، وأصبحت بذلك معقلاً للوطنيين الصينيين، الذين قاموا في أثناء الحرب العالمية الثانية بمناهضة الاحتلال الياباني الذي دمّر المدينة. لكن في حدود عام ١٩٤٥م، استعادت الصين ميناءها القديم، وبدأت بإعمار المدينة وتوسعتها، ثم ظهرت إلى الوجود جمهورية الصين الشعبية بعد أن نجح الصينيون في إزالة الحكم الإمبراطوري، وظلت الصين مع ذلك معزولةً عن العالم، لكنها ما لبثت أن أفاقت من سباتها حينما بدأت بتطوير بنياتها التحتية، وإنشاء المشروعات العملاقة، وأحرزت قفزات اقتصادية كبيرة أوصلتها إلى أن تحتل المرتبة الرابعة بين اقتصاديات العالم اليوم، وهو ما دفع الجميع إلى الاتجاه مجدداً نحو الصين، ونحو بضائعها المنخفضة التكاليف، ومن بين هذه الجموع كان التجار العرب.

## مشهد اليوم

يكمن سر كوانجو في قدرتها على احتواء زائريها الذين يمرّون بها، الذين لا يستطيعون أن ينسوا بعض ألقها ومشاهدها الجذابة، التي تبدو من أعلى جبل بايوون (الغيوم البيضاء) الذي يحيط بالمدينة من الناحية الشمالية، حيث الأبراج العالية، والشوارع الملتفة والمتقاطعة، ونهر اللؤلؤ الضيق ذو المياه المندفعة، ثم الأمكنة العتيقة، والحي الإسلامي، وجامع هواي شنغ.

ينقلك هذا الجامع بتكوينه البنائي الجميل، واصطفاف المصلين في رحابه في لحظات إلى أجواء روحانية طالما يفقدها زائر هذه المدينة. في ساعات ظهر الجمعة، يكتظّ الجامع والشوارع القريبة منه بالمصلين القادمين من كل حدب وصوب،

**بلغ العرب من النفوذ والقوة في كوانجو إلى الحدّ الذي قبل فيه أحد أباطرة الصين بأن يخضع العرب القاطنون في المدينة لقوانين الشريعة الإسلامية وأحكامها**

فتتمنى أن تمتدّ الساعات، وأن يبقى المصلون، ويبقى صوت تسبيحهم، لكن رغبة البقاء هذه لا تبقى كثيراً، فعندما تنتهي الصلاة تجد نفسك مدفوعاً مثل آخرين إلى الخروج. عند بوابة الجامع الرئيسة يختفي بهاء اللحظات السابقة، فتنقلب الصورة، ويتحوّل الهمس إلى ضجيج، والسكينة إلى حراك.

تجبرك الفتيات الصينيات اللائي يصطففن بتتابع على جانبي الممر الخارجي إلى الالتفات إليهن، فتمدّ يدك مأخوذاً برغبة المعرفة لتأخذ بعض الأوراق الملونة الزاهية، فتكتشف أنها ليست سوى قصاصات تصوّر بعض الأطباق والأكلات العربية والإسلامية وأمكنة وجودها. رويداً رويداً يخفت الضجيج، ويقلّ الازدحام، فتنكشف أمام ناظريك الحوانيت الصغيرة القديمة المكدّسة بأنواع البضائع، وبعض المحالّ التي تبيع اللحوم المذبوحة على الطريقة الإسلامية، هنا تستطيع أن تقرأ بعض الحروف العربية وسط الكلمات الصينية، التي تبدو كلوحات الرسامين السرياليين، (حال) كلمة عربية تحمل في طياتها مشروعاً اقتصادياً كبيراً يروّج لكل ما هو حلال. مع حلول المساء، يكاد شارع قوانغتا الذي يقع فيه المسجد يخلو تماماً من المارة، فتسأل نفسك: أين ذهب العرب أحفاد التجار والدعاة القدماء؟!.

## فسيفساء عربية

في (لوان كانشا) تختلط الأصوات واللهجات، أجزاء من مصر، وأطراف من اليمن، ومُزَق من السودان، لكنات مغربية وأخرى شامية، حينها تداعبك الرغبة في التسلل بهدوء إلى مصدر الأصوات، فتدغدغ أنفك روائح المعسل بأنواعه الكثيرة، وتسمع أذنك كركرة الشيشة وقرقعة مياهها المحفوظة بعناية في زجاجاتها البيضاء، أما محبّو تدخينها فيتأملون دخانها المنفوث، الذي يملأ الأجواء، ربما يحلمون بنجاح صفقاتهم.

وإذا ما كنت من محبي الطعام، فإن قدميك ستقودانك من دون أن تشعر إلى الداخل، حيث تجد صورة أخرى للعالم العربي باختلافه ألوانه، وتباينه الذي لا تكاد عين تخطئه؛ فأطباق الطعام هنا كفيلة بترسيخ هذا التباين. باستطاعتك أن تعرف جنسية كلّ واحد من الطبق الذي أمامه. وفي خضم هذه الفسيفساء يرى الداخل عدداً من الفتيات الصينيات، وهنّ إما نادلات يقدمن الطعام، وإما رفيقات لهؤلاء التجار؛ لأنك ببساطة لا تستطيع أن تقوم بأي خطوة في الصين من دون الاعتماد على مترجمين وطنيين، وهم في الأغلب من الفتيات، لكن ذلك لا يجعلنا ننكر مدى إعجابهنّ بالأكل العربي، ولاسيما حينما تعرف مكوّنات الأكل الصيني الذي يتكون من كل شيء يمكن أكله.

## ملامح الحي الجديد

لقد تفوقت (لوان كانشا) على الحي الإسلامي القديم في قوانغتا؛ لأنها نشأت مع الجيل الجديد من التجار العرب الطامح إلى رؤية الوجه الحديث للصين، والرافض - ربما - لرؤية تاريخه. إنها واحدة من الأمكنة الرمزية التي نجحت في جمع صور عالمنا المتباين ومشاهده، وكذلك في مسايرة إيقاعه السريع، فنقلت لهؤلاء التجار عالمهم العربي ببعض تفاصيله، ومزجته برموز الحداثة والعولمة، فأصبح المكان عربياً خالصاً أقرب إلى الأحياء الشعبية على الرغم من وجود هذه الصور. ولعل هذا المشهد يمكن مشاهدته أيضاً في الحي التجاري (خاي تجو)، حيث تحمل لافتات الأمكنة المتناثرة في هذين المكانين أسماء عربية؛ مثل: سبأ، والمدينة، والمائدة، والسندباد، والسدة، والضيافة، وأنوار مكة، والبيت الشامي، وألف ليلة وليلة.

لقد أراد أصحاب هذه المحال من العرب أن تكون هذه الأسماء سلوى لهم، ولمن يأتي إليهم، وإذا كان هؤلاء قد نجحوا في اختيار الأسماء، التي تروق لهم؛ فإنهم أيضاً نجحوا في تزيين هذه المحال من الداخل بألوان من الفن العربي وبعض آيات القرآن الكريم.

معظم من يمتلك هذه المحال، التي هي في أغلبها مطاعم، هم من العرب المقيمين في الصين، ممن كان طالباً أو تاجراً أراد أن يجرّب حظه في هذه البلاد. وقد ساعدهم على ذلك الانفتاح الصيني الكبير، الذي دفع أعداداً من التجار العرب والمسلمين إلى الذهاب إلى هذه المدينة، بوصفها القلب التجاري والصناعي في الصين، والمركز الأساسي لأهم عمليات الاستيراد والتصدير، إضافةً إلى استحالة

**يصل إلى الصين كل شهر آلاف من التجار العرب، ولم تعد إجراءات الحصول على تأشيرة الدخول تتطلب سوى ساعات**



شارع قوانغتا كان قبل قرون محطة لمئة ألف عربي




اسم يساير العصر ويحتفظ في داخله بكل ما هو عربي

تناول المسلمين أغلب الأكل الصيني المحرّم، وهذا ما يمكن معرفته إذا عرفنا أن أكثر من ٩٠٪ من الشعب الصيني لا يدين بأي دين سماوي، وأن المطبخ الصيني يستقبل كل شيء بلا استثناء.

## التجار الجدد

تبدو ملامح حاتم الذي يملك مكتباً تجارياً كبيراً في كوانجو هادئة مثل زملائه الآخرين، لكنك تستطيع أن تكتشف من حركة عينيه قلقلاً يشبه ذلك الذي يبدو عند كثير من رجال الأعمال والتجار المشغولين بشؤون أعمالهم. منذ سنوات أكمل حاتم دراسته في الهندسة الكهربائية، ثم قفل عائداً إلى بلاده ليعمل فيها بعض الوقت، قبل أن يسافر إلى إحدى دول الخليج؛ ليتركها هي الأخرى ويعود إلى المكان الذي عشقه كما يقول، ويفتح مكتباً للخدمات التجارية يقدّم من خلاله خدماته لعدد من العملاء المنتشرين على امتداد العالم العربي من الخليج إلى المحيط. ومثل غيرها فإن هذه المكاتب تقوم بتوفير خدمات الترجمة، وعقد الصفقات والشحن للعميل مقابل نسبة تراوح بين ٥ و١٠٪ من قيمة البضائع.

منذ عشر سنوات أو أقل، لم يكن باستطاعة حاتم أو غيره من أصحاب المكاتب التي تعدّ بالمئات اليوم أن يقوموا بمثل هذه الأعمال، كما لم يكن باستطاعة كثير من رجال الأعمال والتجار الوصول إلى هناك. كان على الذي يريد الدخول إلى الصين أن ينتظر أكثر من ثلاثة أشهر من أجل الحصول على تأشيرة الدخول، ثم عليه التجول بين عدة دول من أجل الوصول إلى كوانجو. أما اليوم، فإن المشهد أصبح مختلفاً، فهنا في كوانجو مئات المكاتب التجارية التي تتنافس في تقديم هذه الخدمات، وفي المقابل يصل إلى الصين كل شهر آلاف من التجار العرب، كما أن إجراءات الحصول على تأشيرة الدخول لم تعد تتطلب سوى ساعات، وفي أسوأ الحالات ثلاثة أيام.

## المدينة والميناء

تستحوذ كوانجو، التي يتكون ميناؤها من قسمين يفصل بينهما ١٥ كيلومتراً، على معظم الحركة التجارية في الصين؛ إذ يصل حجم التبادلات التجارية فيها إلى ربع التجارة الخارجية للبلاد، إضافةً إلى احتضانها عدداً كبيراً من المصانع المتقدمة في الصناعات المختلفة. لكن أهم ما في المدينة هو معرضها التجاري الشهير المعروف بـ(كانتون فير) (canton fair)، الذي يُعقد منذ عام ١٩٥٧م كل ستة أشهر (منتصف إبريل، ومنتصف أكتوبر)، وربما هذا هو السر في الوجود العربي الكثيف الذي بدأ في تشكيل جالية كبيرة هناك.

ويلاقي هذا المعرض إقبالاً كبيراً من رجال الأعمال والتجار وعموم الناس من كل أنحاء العالم، وفيه تعرض المصانع والشركات الصينية أحدث ما توصّلت إليه من منتجات وصناعات.

لقد ارتفع حجم التبادل التجاري بين الدول العربية وجمهورية الصين اليوم إلى أكثر من ٦٠ مليار دولار، وهو ما يتوقع أن يقفز إلى ١٠٠ مليار بحلول عام ٢٠١٥م؛ فالصين اليوم تعدّ رابع أكبر اقتصاد في العالم بنسبة نمو تجاوز ١٠٪، وإجمالي ناتج كلي تجاوز حاجز الـ٢٠ تريليون يوان صيني (٢,٥ تريليون دولار). لقد أصبحت الصين اليوم وجهةً لجميع الحالمين بالثروة، تماماً كما كانت في الماضي.

## العثور على ثلاثة آلاف قطعة أثرية في محافظة الفيوم المصرية



أعلنت وزارة الثقافة المصرية عن اكتشاف ثلاثة آلاف قطعة أثرية تضم عملات نقدية، وأساور زجاجية، وأحجارًا كريمة يرجع تاريخها إلى خمسة عصور مختلفة، في محافظة الفيوم الواقعة على بعد ٩٠ كم جنوب العاصمة القاهرة.

وأوضح خالد سعد - رئيس البعثة الأثرية العاملة في منطقة بحيرة قارون - أن القطع الأثرية تعود إلى العصر الإغريقي والروماني والبطلمي، وما قبل التاريخ، والعصر المملوكي. وأشار إلى أن القطع كانت مطمورة في المناطق الصحراوية على الساحل الشمالي لبحيرة قارون في محافظة الفيوم، وقد تم العثور على القطع في مساحة كيلومترين مربعين، متوقعاً العثور على المزيد من الآثار في هذه المنطقة.

وأوضح سعد أن القطع المكتشفة تشمل عملات عليها رسوم ونقوش، وموازين وأدوات طبية، وأساور زجاجية، وأحجارًا كريمة، وإبرًا من العظام والحجر، وأنواعاً من الطواحين، ودمية عروس النيل، ورؤوس سهام متنوعة، وآيات قرآنية منقوشة.

## روزفلت ساعد اليهود من وراء الكواليس

صدر للكاتب الأميركي ريتشارد برايتمن كتاب جديد بعنوان «لاجئون وإنقاذ: يوميات وأوراق جيمس جي ماكدونالد»- كشف فيه أن الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت الذي اتهم تاريخياً بعدم المبالاة تجاه هموم اليهود الأوربيين كان في الواقع يعمل من وراء الكواليس لمساعدتهم. وقال الكاتب: إن روزفلت حاول مساعدة اليهود الأوربيين في السر للعثور على أماكن آمنة؛ ليعيشوا فيها خلال فترة الثلاثينيات من القرن الماضي، وذلك على عكس ما شاع عنه.

وأوضحت صحيفة «يو أس أي توداي» الأميركية أن معلومات الكتاب تستند إلى وثائق من مركز التاريخ اليهودي في نيويورك.

وكتب برايتمن أن روزفلت ساعد مهاجرين ألمانًا وخصوصاً اليهود منهم على تجاوز العدد المسموح به من المهاجرين في ثلاثينيات القرن الماضي، خلال قيامه بتنسيق مؤتمر دولي لمساعدة اليهود الأوربيين.

# مؤتمر اليونسكو في اليوم العالمي للصحافة يناقش تعزيز الحوار والتفاهم المتبادل



دعا المشاركون في مؤتمر اليونسكو في اليوم العالمي للصحافة في الدوحة المؤسسات الإعلامية والجمعيات المهنية في أنحاء العالم والدول الأعضاء في المنظمة إلى التزام تطوير مؤهلات الصحفيين المهنية، وإرساء أطر عمل قانونية تضمن حرية التعبير، وتضمن للإعلاميين المحترفين أداء عملهم بحرية وسلامة، كما دعوا اليونسكو إلى الاستمرار في توعية الحكومات بأهمية حرية التعبير.وقد أقيم المؤتمر تحت شعار «إمكانيات وسائل الإعلام: تعزيز الحوار والتفاهم المتبادل والمصالحة»، وهو يقام أول مرة في دولة عربية، ورعته الشيخة موزة بنت ناصر المسند – حرم أمير دولة قطر.

ودعا الإعلان المؤسسات الإعلامية والجمعيات المهنية إلى توعية الرأي العام بانتهاكات حقوق الإنسان والتعصب واستغلال النفوذ، وضرورة إعداد التحقيقات، والتقارير الصحفية بطريقة مهنية احترافية، وتنظيم نشاطات موجهة إلى تحسين فهم تنوع الثقافات عبر تعزيز عمليات التبادل الإعلامي والمشروعات المشتركة مع إعلاميين محترفين من مختلف الثقافات والخلفيات المهنية.

وطالب البيان تعزيز التنوع في صالات التحرير على جميع مستوياته عبر توسيع مصادر التوظيف لزيادة المساواة والمشاركة والحوار.

وقد دعا –أيضًا– إلى تطبيق المبادئ الأساسية لأخلاقيات مهنة الصحافة في كل أعمالها من خلال إيلاء عناية خاصة بتغطية القضايا الحساسة مثل الدين والتعدد الثقافي والجريمة والهجرة والإرهاب، وإلى تطوير مبادرات عملية تعنى بكيفية إعداد التقارير حول التنوع الديني والثقافي لتعزيز الحوار والتفاهم من خلال إرساء مناهج تعليمية بكليات الإعلام والصحافة تركز في التوعية حول الحوار بين الثقافات وإعداد التقارير حول النزاعات.

وحث إعلان الدوحة الدول الأعضاء باليونسكو على وضع أطر عمل قانونية من شأنها ضمان حرية التعبير، وضمان أداء الإعلاميين المحترفين عملهم بحرية وسلامة من دون تهديد، واتخاذ الإجراءات اللازمة لضمان التحقيق المستقل والادعاء في حال حدوث عنف أو تهديد للصحفيين والمدونين.

ودعا الإعلان الدول إلى الحرص على أن تتضمن أنظمتها الدستورية والتشريعية الضمانات الفعالة الكفيلة بتأمين حرية الفكر والمعتقد والدين للجميع وفقا للمعايير الدولية، وتشجيع ثقافة الشفافية بما في ذلك النفاذ الحر للإعلام ونشر الأخبار لتعزيز الحوار.

ودعا إعلان الدوحة اليونسكو إلى الاستمرار في توعية الحكومات والمشرعين والمؤسسات العامة بأهمية حرية التعبير بما فيها حرية النفاذ إلى المعلومات وإنتاجها وتشاركها.

ودعاها أيضا إلى تعزيز الترويج لدور وسائل الإعلام الجديدة والتقليدية لتكون منصة للحوار عبر تحسين القدرات اللازمة لإعداد تقارير مستقلة وتحليلية ومهنية محترفة.

كما دعا المنظمة الدولية أيضا إلى نشر إعلان الدوحة بشكل واسع في الدول الأعضاء فيها وغيرها من المنظمات الدولية والإقليمية، واستخدام هذا الإعلان مرجعاً لنشاطات المنظمة في هذا المجال.وتقرر أن يقام احتفال العام القادم باليوم العالمي للصحافة في مدينة بريسبين الأسترالية.




مذكرات

قاسم محمد الرجب

صاحب مكتبة المثنى ببغداد

قدم لها وعلق عليها

د. عماد عبد السلام رؤوف

الدار العربية للموسوعات

# مذكرات قاسم الرجب

**عرض: محمد حيان الحافظ**
**الرياض - السعودية**

صدر هذا الكتاب، الذي جاء بعنوان: (مذكرات قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد)، عن الدار العربية للموسوعات في طبعته الأولى سنة ١٤٢٩هـ (عام ٢٠٠٩م)، وقدّم لهذه المذكرات وعلّق عليها الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف، ويقع الكتاب في ٢٩٦ صفحة من الحجم المتوسط.

ويتناول هذا الكتاب تاريخ هذا المكتبة التي مكّنت الناس في العراق وغير العراق من إحراز أندر المطبوعات العربية وأعزّها؛ فقد كان الأستاذ الرجب هو الكتبي الوحيد في العراق الذي تيسّر له أن يُدخل إلى العراق أكثر ما عُرف من المطبوعات العربية التي حقّقها المستشرقون.

وقد توسّعت هذه المكتبة بفضل ذكاء صاحبها، الذي كان أعرف العارفين بالكتب العربية؛ فهو على علم واسع بما طُبع منها في مختلف أنحاء العالم، وإلمامه بأحوال مؤلّفيها وعصورهم قلّما يجاريه فيه أحد، حتى قال أحد الأدباء العراقيين: لو أنصف العراقيون تاريخهم الفكري لأقاموا تماثيل ثلاثة روّاد عراقيين، هم: الزهاوي الشاعر الفيلسوف؛ لإدخاله الأفكار الحديثة إلى العقل العراقي، ورفائيل بطي رائد الصحافة الحديثة، وقاسم محمد الرجب الذي جعل مطبوعات الخافقين في متناول العراقيين، بل شبّهه بعضهم بالعلماء الذين اشتهروا بالكتب؛ أمثال: ابن النديم صاحب (الفهرست)، وحاجي خليفة صاحب (كشف الظنون).

ولم تكن مكتبة المثنى مكتبة لبيع الكتب فقط، بل تعدّت ذلك لتصبح ملتقى للطبقة المثقفة في العراق، يقصدها الأديب والشاعر والمؤرخ والصحافي والقانوني والطبيب والمعلم وسائر رجال العلم والبحث والتتبّع.

## بين يدي هذه المذكرات

تحت هذا العنوان كتب الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف مقدّمة ضافية عن تاريخ هذه المكتبة، وكيفية بدايتها، وعلاقة صاحبها بهذه المهنة، بادئاً بتاريخ المنطقة التي تقع فيها المكتبة، وهي منطقة سوق السراي، وتناول تاريخها منذ عصور ما قبل بناء مدينة بغداد على يد الخليفة العباسي المنصور، وتناول التغيُّرات التي حدثت فيها خلال العهود السياسية المتعاقبة على حكم العراق.

وقد بدأت علاقة قاسم محمد الرجب بمهنة الوراقة عام ١٩٣١م، عندما قدم وهو صبيّ صغير من إحدى ضواحي بغداد، وعمل على كسب رزقه في المكتبة العربية التي كان صاحبها نعمان الأعظمي الذي عُرف في السوق بوصفه ناشراً وموزّعاً وبائعاً للكتب. وقد استطاع هذا الصبيّ في وقت وجيز أن يتعرّف أسرار هذه المهنة، بل أقدم - في خلال سنوات قليلة - على خطوة جريئة هي تأسيس مكتبة صغيرة سمّاها أولاً بمكتبة المعرّي، وهو اسم نادٍ قومي كان قد أسّسه عدد من الشبان المثقفين آنذاك، ثم بمكتبة المثنى فيما بعدُ.

وطوّر الرجب ما يُعرض من كتب، فطفق يستورد ذخائر التراث العربي التي كان يحققها المستشرقون، ووجد المثقفون في العراق ضالتهم فيما يجلبه الرجب من هذه الذخائر، فنال ثقتهم وتقديرهم. واتّسع نشاط المكتبة حتى ضاق بها مكانها الأول، وظلت تنتقل من مكان إلى مكان أكبر، حتى غدت في الخمسينيات من القرن الماضي المكتبة الأولى في العراق، ومن أولى المكتبات في الوطن العربي. وكانت شخصية الرجب المتفائلة والمثقفة سبباً كبيراً في هذا النجاح؛ فقد استطاع كسب صداقة عدد كبير من الكتاب والمؤلفين والأدباء والمفكرين والمحققين داخل العراق

شارع المتنبي في بغداد

وخارجه، كما أن أفكاره النيّرة كانت سبباً أيضاً في بلوغ هذا النجاح؛ فهو لم يكتفِ باستيراد نفائس الكتب أو تسويقها فقط، وإنما شرع في السبعينيات بخطوة رائدة لم يكن مسبوقاً إليها على الإطلاق، وهي إعادة طبع تلك النفائس النادرة بالتصوير بطريقة الأوفست، وتجليدها على نحو مطابق لأصولها، مع الإشارة الكاملة إلى بيانات الطبع، وأسماء محقّقيها، والدُّور التي قامت بنشرها، وقد بلغ عدد ما طبعه من هذه الكتب نحو مئتين وخمسين كتاباً، بعضها يقع في عدة مجلدات. ولم تقف أفكار الرجب عند هذا الحد وحده في خدمة البحث والباحثين؛ فقد قام منذ عام ١٩٤٨م بإصدار (قائمة مكتبة المثنى)، وهي



سوق السراي

كتاب أخذ يزداد ضخامةً وثراءً في كل طبعة جديدة، حتى نيَّف عدد صفحاته على الخمسمئة صفحة، وامتلأت بأسماء الكتب ومؤلفيها وأسعارها، حتى غدت أشبه بموسوعة ثقافية تعرِّف الباحث، ودور النشر والقارئ عامةً، بكل ما هو جديد في عالم الكتب العربية في العالم.

وتوالت أفكار الرجب وإبداعاته في هذا المجال، فأصدر أول مجلة شهرية في العراق تُعنى بشؤون التراث وتحقيقه ونشره، وهي من أولى المجلات الصادرة في الوطن العربي التي تُعنى بهذه الشؤون، وقد سمّاها (المكتبة)، وكانت هذه المجلة تضم بحوثاً جادة في نقد الكتب، والتعريف بالمخطوطات النادرة، وفهارس للمكتبات الخطية، ورسائل لكبار المحققين والباحثين، وتقارير يرسلها محبّو المجلة من أقطار شتى، فضلاً عن متابعة جادة لآخر الأخبار الثقافية في العراق والأقطار العربية والعالم.

وتوسّعت أعمال المثنى، وصار لها فروع في الموصل والبصرة، وفي بيروت، ووكلاء في معظم الأقطار العربية، وزادت صلاتها مع دور النشر في العالم، إلا أن رياحاً جديدة بدأت تهبّ على هذا النجاح في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، لتضع كثيراً من الصعاب لم تكن معروفة من قبل، فثمة رقابة متشدّدة تحاصر الكتاب المستورد حتى قبل أن يصل إلى أرض العراق، كما واجهت مجلة (المكتبة) حصاراً غير مُعلَن، إضافةً إلى تأسيس الدار الوطنية للتوزيع والنشر عام ١٩٧٠م، وهي دار حكومية، وتمّ اختيارها لتوزيع المجلات الواصلة إلى العراق: مما أدى إلى تصفية قسم المجلات في المكتبة، وهذا الأمر أدى بدوره إلى تدهور مالي، وتراكم الديون، إضافةً إلى ركود السوق، وارتفاع الضرائب، وعقوق من كان الرجب يحسن إليهم ويساعدهم.

وقد انعكس كل هذا سلباً على نفسية الرجب، الذي حاول تحدّي الصعاب بروحه المتفائلة ومثابرته وعناده، وكان عام ١٩٧٤م هو آخر مجهود له في عالم تجارة الكتب: إذ سافر إلى بعض الأقطار العربية، وفي بيروت حيث كان يتفقد فرع مكتبة المثنى تزايدت عليه المتاعب النفسية، ليصاب بأزمة قلبية حادة، توفي على إثرها في الأول من شهر إبريل/ نيسان من تلك السنة، فنقل جثمانه إلى بغداد حيث شيّع بموكب مهيب، صُلِّي عليه في جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة، ودفن في مقبرته بجوار صديقه الخطاط الشهير هاشم محمد البغدادي قرب مرقد الشيخ أبي بكر الشبلي، رحمه الله رحمة واسعة.

وكان الأستاذ الرجب قد نشر مذكراته في حلقات متسلسلة في جريدة البلد البغدادية، التي أصدرها صديقه الأستاذ عبدالقادر البراك، ثم في مجلته (المكتبة). ولما قرّر الدكتور عماد رؤوف نشر هذه المذكرات في كتاب واحد لاحظ أن صاحبها لم يكتبها وفق سياق زمني أو موضوعي محدّد، وإنما كتبها على طريقة التداعي الحرّ. وعند رجوع الدكتور رؤوف إلى أصل هذه المذكرات وجد أن نشرها وفق ما كتبه في الأصل أفضل من الناحيتين الزمنية والموضوعية من نشرها على الشكل الذي نُشرت به في حلقات مستقلة. وقد عمل الدكتور رؤوف على التعريف بالشخصيات التي ورد ذكرها في المذكرات وكان لها وجود في سوق الكتاب قراءً وباعةً وأصحاب مكتبات وموزِّعين، وكذلك عرّف بالمعالم التي ورد ذكرها في هذه المذكرات.

### المذكرات

يقول الرجب، وهو أبو محمد قاسم بن محمد بن رجب ابن الحاج قاسم الأعظمي، الذي ينتمي إلى قبيلة العبيد العربية القحطانية الحميرية، وأهل مدينة الأعظمية في بغداد أغلبهم من أبناء هذه القبيلة: إن مولده كان في بلدة الأعظمية المنسوبة إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وكان والده يعمل في الدباغة، وهي المهنة التي كانت مصدر رزق البلدة، ومصدر أمراضها أيضاً. وتحدّث عن والده وإخوانه جاسم وهاشم، ومراحلهم التعليمية، وتنقلاتهم بين عدد من المدارس العراقية لظروف مختلفة. وانقطع الأستاذ الرجب عن الدراسة عام ١٩٣٠م للظروف الاقتصادية القاهرة التي كان تمرّ بها أسرته، وبدأ في العام نفسه بالعمل مع نعمان الأعظمي صاحب المكتبة العربية، الذي كانت تربطه به صلة القرابة والجوار، وكان يعمل براتب ضئيل، وقدّم وصفاً لسوق المكتبة في تلك الحقبة من حياة العراق: إذ كان السوق يضم عدداً

**يعدّ العراق أحسن سوق لبيع الكتب وأعظمها إذا ما قيس بسائر الأقطار العربية، ولعل مرجع ذلك هو صراع المبادئ والمذاهب والعقائد**

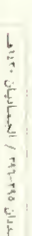
من المكتبات الكبيرة والصغيرة، وتحدث عن الكتب والمخطوطات، وتجّارها، ومعاملاتهم بعضهم مع بعض ومع جمهور القراء، وتحدث عن معاملة نعمان الأعظمي القاسية له؛ إذ كان شحيحاً بالمال وحتى بالكتب؛ إذ لم يكن يسمح لهذا الصبي أن يقرأ من الكتب داخل المكتبة أو في المنزل مهما كان سعر الكتاب زهيداً؛ مما اضطر معه الأستاذ الرجب إلى أن يضغط على نفسه، ويوفّر من مصروفه ما يشتري به بعض الكتب لقراءتها.

وتحدث الأستاذ الرجب عن كتاب (الحوادث الجامعة) المنسوب وهماً إلى ابن الفوطي، الذي حقّقه مصطفى جواد، ونشره على نفقته نعمان الأعظمي، وأهداه إلى الملك فيصل الأول ملك العراق. فنفحه الملك فيصل مبلغاً كبيراً من المال. وكذلك تحدث عن نشر كتاب (تاريخ بغداد) لأبي بكر الخطيب أحمد بن ثابت البغدادي، وكان الكتاب يعدّ من الكتب المفقودة، فعثر عليه محمد أمين الخانجي عند تجواله في المكتبات الشرقية والأوربية، وباشر نشره بالاشتراك مع مطبعة السعادة في مصر، ونعمان الأعظمي في بغداد، وأشرف على تخريج أحاديثه الشيخ حامد الفقي وبعض المشايخ من علماء مصر بإشراف الخانجي نفسه.

وكان بعض الأدباء يكترون الروايات باستمرار من نعمان وغيره، فيدفعون لهم أجرهم ثمن قراءة كل مجموعة، وكانت بعض

**بعد الحرب العالمية الثانية، أصيب سوق الكتاب بكساد شديد، مما دعا الرجب إلى التفكير في نشر مجموعة من الكتب النادرة بطريقة التصوير (الأوفست)**

الكتب تُباع في سوق المزاد أيام الجمع، وهي غالباً ما تكون من الكتب البائرة عند أصحاب المكتبات، فيدبّرون مؤامرة على الزبائن بإقامة هذا المزاد. وذكر الرجب أن بعض اليهود كانوا في تلك الأيام يتّجرون بالمصاحف ولوحات الآيات القرآنية من دون أن يفهموا شيئاً من أمرها، كما أن كثيراً من تجّار الكتب في تلك الأيام لا يعرف شيئاً عن الكتب، بل إن بعضهم كان لا يعرف حتى القراءة. وقد سرد الرجب كثيراً من الحكايات والنوادر عن هؤلاء التجار.



كان الكتاب في العراق من الأشياء التي يُستغنى عنها، وتباع حال وفاة مقتنيها؛ لذا قال الرحّالة نيبور الذي زار العراق في القرن الثامن عشر: «إنك إذا كنت تريد كتاباً من بغداد ولم تجده فانتظر حتى يُتوفّى أحدهم، فعندئذٍ ستباع كتب المتوفّى في اليوم التالي، فتجد الكتاب الذي تريده». فكان البغدادي أذا أفلس أو تزوّج باع مكتبته. وكان سوق الكتب يعتمد كثيراً على إيران، ويعدّ العراق أحسن سوق لبيع الكتب وأعظمها إذا ما قيس بسائر الأقطار العربية، ولعل مرجع ذلك هو صراع المبادئ والمذاهب والعقائد.

وتناول الرجب (مشاكل الكتب ومتاعبها) من ارتفاع الرسوم الجمركية، وسرقتها بواسطة الخدم والأولاد، وسرد كثيراً من المحن التي صادفته في ذلك، وتحدث عن تجارة الكتب المدرسية، وأصحاب المكتبات قبل أن يؤمَّم الكتاب المدرسي في العراق في نحو عام ١٩٣٣م، وكيف كانت تستغلّ من الباعة بشكل بشع جداً بالتواطؤ مع المؤلفين، ومن ثم التواطؤ مع المشرفين على الكتاب وبيعه من قبل الحكومة.

وتناول الأستاذ الرجب كذلك نوعاً آخر من المطبوعات، وهو المفكرات، ومنها: (المفكرة العربية) التي يصدرها نعمان الأعظمي، و(المفكرة العصرية) التي كان يصدرها محمود حلمي، ولم يعرف يومها تقويم الحائط. وذكر أن أهم المدن العراقية في شراء الكتب وتصريفها في ذلك الوقت هي: بغداد، والنجف الأشرف، وكربلاء، والموصل، والبصرة، والحلة، وكركوك، وأقل المدن العراقية شراءً للكتب، بل يكاد يكون لا وجود للكتاب فيها ولا ذكر، هي: لواء الكوت، والرمادي. وأما ألوية الديوانية، والعمارة، والناصرية، فأحسن بقليل.

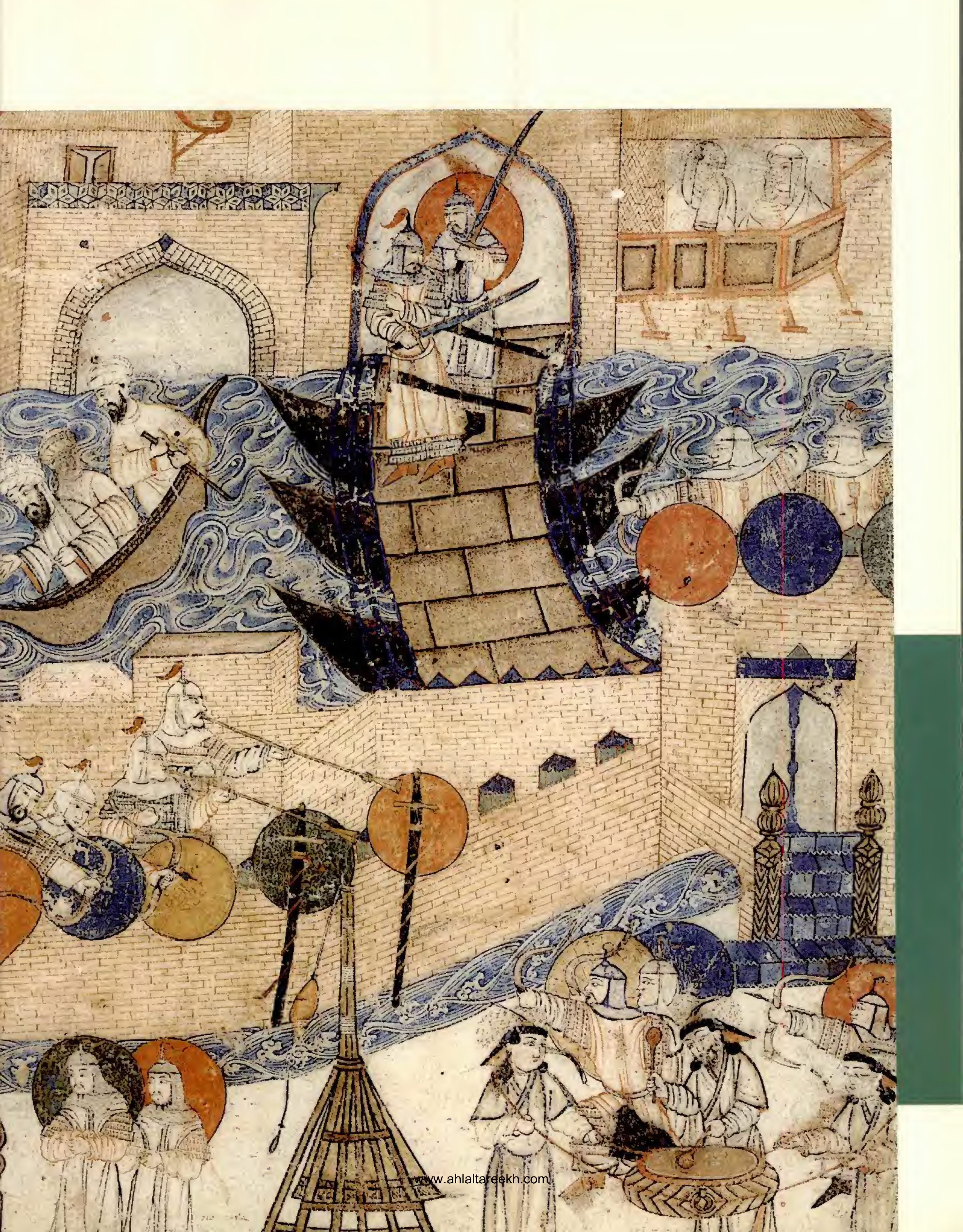
وتناولت المذكرات (الخطّاطين والمجلّدين)، والأعمال التي كانوا يؤدونها في سوق الكتب، وتحدث عن المكتبات العامة، وطريقة الاستعارة منها، وقوانينها التي لم تكن رادعةً، وتحدث عن (المطابع) التي كانت قليلةً وبدائيةً، وذكر أهم المطابع في تلك الحقبة وأشهرها.

وعن (تجارة المخطوطات)، ذكر الرجب أنها تصل إلى بغداد من كربلاء والنجف الأشرف، وهي أجود ما يُعرض من المخطوطات وأندرها. وكتب عن تجّارها ومسوِّقيها، وأكّد أن العراق يعدّ من أفقر بلاد العالم قاطبةً بالمخطوطات إذا ما قيس بمصر وإستانبول ودمشق والهند، وعزا ذلك إلى المحن والكوارث التي مرّت على العراق، والجهل، والحرائق التي مُنيت بها بغداد وأتت على تراث ضخم من هذه المخطوطات، وأورد أسماء بعض العلماء والمستشرقين الذين زاروا سوق الكتب. وتحدث عن (المجلات) وكيفية وصولها إلى العراق، وأنواعها، والموضوعات التي تتناولها. ووصف الرجب كيف كان سوق السراي الذي تقع المكتبة ضمن محلاته، وتأثره بالحركة الوطنية والروح الوطنية المتأججة نتيجة نكبة فلسطين.

**كانت مجلة المكتبة غنية بالمعلومات، زاخرة بأخبار الكتب والكتاب؛ لذلك تعدّ في نظر عدد من النقاد مصدراً مهماً لكل من يريد توثيق الحياة الثقافية العراقية المعاصرة**

### تأسيس مكتبة المثنى

بقي الرجب عاملاً عند نعمان الأعظمي حتى عام ١٩٣٦م، وقد عانى ما عانى من قلة المرتّب، وسوء المعاملة التي كان يجدها منه. ولكن الظروف الاقتصادية الضاغطة التي كان يعيشها أجبرته على البقاء طوال هذه المدة، ولكنه في النهاية قرّر الانفصال عنه، وبدأ بداية متواضعة، وذلك بأن استلف مبلغ ٤ دنانير ونصف الدينار من إحدى قريباته، وأرسلها إلى شركة الكتبي (لوزاك) في لندن، وطلب نسخة كاملة من كتاب (معجم الأدباء) تأليف ياقوت الحموي الرومي، الذي حققه ونشره المستشرق الإنجليزي د. سي. مرجليوث، وباعه وربح مبلغاً يعادل راتبه في الشهر، واستمر كذلك مدة ثلاثة أشهر، ولم يرجع بعد ذلك إلى نعمان الأعظمي على



الرغم من الوساطات التي كان يبعثها إليه.

ثم اتّصل به خاله عبدالرحمن، وطلب منه أن يفتح معه مكتبة، وبالفعل أخذ أحد الدكاكين في سوق السراي لا تزيد مساحته على مترين مربعين، واستأجره بمبلغ ستة عشر دينار في العام. وكان ذلك في ١٩٣٦/٧/٥م. وسماها مكتبة (المعرّي).

وتوسّعت المكتبة. وازدادت وارداتها من الكتب والمجلات في مختلف فروع العلم. وأشار عليه أحد أصدقائه أن يغيّر اسم المكتبة إلى مكتبة (المثنى)؛ نسبةً إلى المثنى بن حارثة الشيباني: أحد قادة الجيش العربي الذي فتح العراق في صدر الإسلام.

ويذكر الرجب أول مرة دخل فيها المحكمة مدَّعًى عليه، وتناول علاقته ببعض الشخصيات من روّاد المكتبة وعملائها، منهم: إبراهيم صالح شكر، وعبدالحليم الحافاتي، وخليل أحمد جلو، ورفائيل بطي، ومهدي القزاز، وتوفيق السمعاني، ومصطفى علي (وزير العدل في حكومة عبدالكريم قاسم). وقد ألّف الأخير كتاباً عن الشاعر معروف الرصافي قام بطبعه الأستاذ الرجب، وقد اتّضح له فيما بعد أن الكتاب يعدّ من أسوأ ما كُتب عن الرصافي عبر تاريخه. وقد بار الكتاب ولم يُوزَّع كما كان متوقعاً.

وروى الأستاذ الرجب كذلك بعض الطرائف عن جشع بعض المؤلفين، ومن ذلك أن أحد المؤلفين بعث إليه بنسخ من كتاب صغير، وعند إرساله قائمة الحساب التي بموجبها سيسدّد قيمة النسخ المُرسَلة سجّل في آخرها قيمة الطوابع التي صرفها على إرسال الرسالة. وكذلك كان بعض المؤلفين يهدي إليه نسخة من كتابه، ولما لم يشترِ منه، يعود ويطالبه بردّ النسخة المهداة، على الرغم من وجود عبارة الإهداء وتوقيعه عليها، وغير ذلك من الطرائف. وحكى الرجب عن بعض الورّاقين الذين تعوزهم اللياقة في فن المقابلة وحسن المعاملة، كما حدث من بعضهم مع العالم الهندي الكبير عبدالعزيز الميمني الراجكوتي: أستاذ العربية في جامعة عليكرة في الهند، الذي زار العراق عام ١٩٥٧م، وجوّل في عدد من المكتبات العراقية.

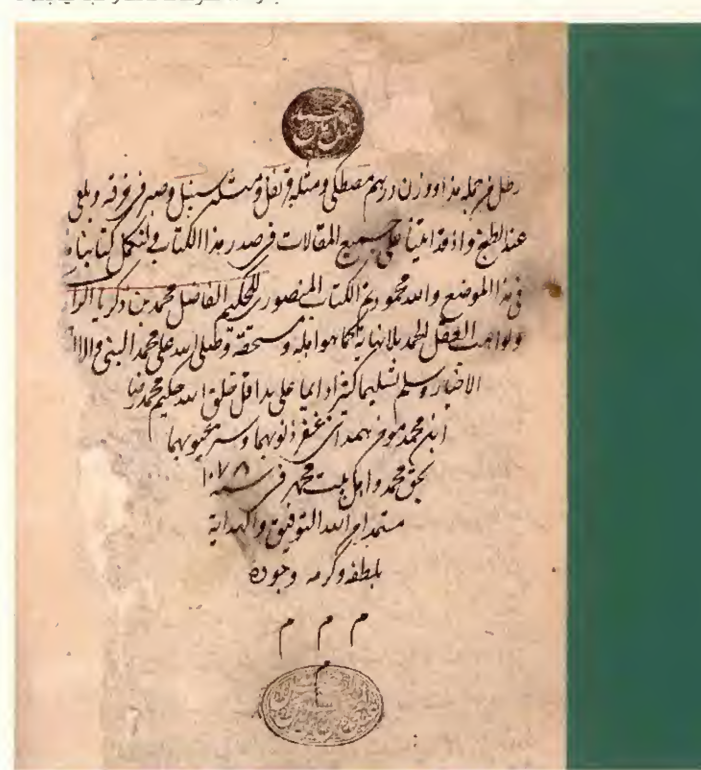
وتناولت المذكرات (نوادر المخطوطات) التي تُعرض في السوق من وقت إلى آخر. وكان الرجب يأخذ منها ما يراه مهماً. وذكر أن أنفس ما اشتراه نسخة قديمة من كتاب (نهج البلاغة) كتبت سنة ٥٤٨هـ. وفيها زيادات.

وارتفعت أسعار الورق في أثناء الحرب العالمية الثانية؛ مما اضطر أصحاب معامل (سيكار العرب) لصنع (الزبّانة)، أو التغليف بأوراق الكتب القديمة، أو إعادة صنعها ورقاً مُقوًّى، وكانوا يشترونها لهذا الغرض: مما أدى إلى ندرة الكتب المستعملة.

كانت أول سفرية للمؤلف خارج العراق عام ١٩٤٤م حين سافر إلى القاهرة، وكان الهدف منها الاطلاع على الكتب من منبعها. واشترى الرجب في هذه الرحلة عدداً من الكتب التي تطبع في أوربا، جزء منها من مكتبة القاضي أحمد حسين أخي الدكتور طه حسين، وكان قد سئم من كثرة استعارة أخيه طه وطلابه الكتب من تلك المكتبة.

وتحدث الرجب عن علاقته بكثير من المكتبات المشهورة في مصر، وطريقة تعامله مع أصحابها: مثل: مكتبة الخانجي، ومكتبة سركيس الكائنة في ٥٢ شارع الفجالة، ومكتبة المستشرق في شارع قصر النيل، ومكتبة الحسين الواقعة في شارع جوهر القائد (السكة

تجارة المخطوطات كانت رائجة في بغداد



الحديد سابقاً)، والمكتبة التجارية الكبرى في شارع محمد علي في أول ميدان العتبة الخضراء، ومكتبة القدسي. كما اتصل بكبريات دور النشر ودور الكتب التي تُعنى ببيع نوادر المطبوعات ونفائسها، إضافةً إلى مكتبات خاصة وجامعية، منها: مكتبة الجامعة الأمريكية، وإدارات صحف ومجلات ومؤسسات؛ كدار الهلال، ومجلة الرسالة، وغيرهما.

وفي طريق عودته من مصر إلى العراق مرّ الرجب بدمشق، وجوّل في أسواقها، وتعرّف بعض المكتبات فيها؛ أمثال: المكتبة العربية لصاحبها أحمد عبيد في سوق الحميدية، ودار اليقظة العربية لأصحابها شفيق حمدان وإخوته في شارع فؤاد، والمكتبة الهاشمية، ومكتبة القصباتي في العصرونية.

وتناولت المذكرات قصة اليهودي موسى بن نصير الذي أسلم وحسن إسلامه، وصار من أكبر المدافعين عن الإسلام، ودحض حجج اليهود، وفضح أكاذيبهم.

وتناول الرجب قصة طباعته أحد الكتب المدرسية، وهو (مبادئ القراءة الخلدونية)، الذي أهداه إلى وزارة المعارف مؤلّفه الأستاذ أبو خلدون ساطع الحصري، وقصة مشكلاته مع وزارة المعارف من جرّاء طبع هذا الكتاب وتوزيعه عدة مرات. وتحدث عن (مشاكل توزيع الكتاب)، وكيف أن الكتاب الجيد يفرض نفسه على القارئ ولا يحتاج إلى الترويج، ومثال ذلك كتاب (طبيعة المجتمع العراقي) للدكتور علي الوردي، الذي يعدّ أسرع كتاب تم توزيعه في ذلك الوقت. وتناول تطور التوزيع، خصوصاً بعد افتتاح بعض الشركات الكبرى أفرعاً لها في العراق؛ مثل: شركة فرج الله لتوزيع المطبوعات بالاشتراك مع محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية، وتطرّق إلى علاقته بهذه الشركة، والمشكلات التي حدثت بين الطرفين نتيجة المنافسة في أسواق الكتب والمجلات، وسرد الحادثة التي كانت سبباً في إغلاق هذه الشركة.

وكانت للرجب وقفة مع (فهارس الكتب) التي شهدها العراق أول مرة عام ١٩٤٨م، وكان فهرساً بسيطاً، وتتبّع تطور هذا النوع من الكتب، ووضّح أهميتها بالتعريف بعالَم الكتب والمكتبات. وتحدّث عن بداية العهد بالرقابة في العراق، وسرد كيف كان يتحايل عليها في إدخال المطبوعات الممنوعة، وقال: إنه لو كتب كل ما قاساه من الرقابة العسكرية والمدنية في مجلد ضخم لما انتهى منها، ولما وفّاها حقها؛ فقد كان أتفه سبب كافياً لمنع توزيع الكتاب. وسرد طرفاً من تعسّف الرقيب، وصغر عقله، وضيق ذهنه، وسوء تصرفاته، مؤكداً أن هذه العقلية لم تتغيّر منذ أقدم العصور حتى اليوم.

وتحدث عن ضيق سوق السراي على المكتبات وباعة الكتب بزحف أصحاب المهن الأخرى، وهذا الأمر اضطرهم إلى الانتقال إلى شارع المتنبي، الذي أصبح فيما بعد من أكبر الشوارع التي توجد بها الكتب والمكتبات، وتناول التطور الذي صاحب مكتبة المثنى في هذا الشارع.

وتحدث الرجب عن الكتب الشيوعية وانتشارها في العراق في إحدى حقب الحكم فيه، وحكى قصته مع كتاب (المادية الدايلكتيكية) من تأليف ستالين، والمصاعب والمشكلات التي واجهها بسبب هذا الكتاب، وقد أصاب الإهمال الكتب الإسلامية والقومية في تلك الحقبة من تاريخ العراق.

وتناولت المذكرات إصدار (مجلة المكتبة) التي تعدّ من أهم ما أنجزه هذا الرجل؛ فهي أول مجلة عراقية تُعنى بالكتاب، وقد صدر عددها الأول في مايو/ أيار عام ١٩٦٠م، وجاء في ترويستها أنها «قائمة شهرية تصدرها مكتبة المثنى لصاحبها قاسم محمد الرجب، بغداد - شارع المتنبي، تلفون ٨٣٥٨٨... وهي بحجم صغير، وبمقاس (٢٠×١٤سم)». ووضعت المجلة خطة لتوثيق حياة أدباء الأطباء في العراق الحديث، فعهدت إلى الأستاذ سليم المعروف بالكتابة في عددها (١١) السنة الثانية، مارس/ آذار ١٩٦٢م، عن الدكتور معمر خالد الشابندر، وفي العدد (٢)، السنة الثالثة، يونيو/ حزيران ١٩٦٢م، للكتابة عن الدكتور إسماعيل ناجي.

**يعدّ العراق من أفقر بلاد العالم قاطبةً بالمخطوطات إذا ما قيس بمصر وإستانبول ودمشق والهند، ويعزى ذلك إلى المحن والكوارث التي مرّت على العراق، والجهل، والحرائق التي مُنيت بها بغداد**

واحتوت المجلة على صور بعض الكتاب والمفكرين والصحفيين والمستشرقين والباحثين والمؤلفين الذين كتبت عنهم. لقد كانت مجلة غنية بالمعلومات، زاخرة بأخبار الكتب والكتاب؛ لذلك تعدّ في نظر عدد من النقاد مصدراً مهماً لكل من يريد توثيق الحياة الثقافية العراقية المعاصرة، خصوصاً أنها ظلّت مستمرة في الصدور حتى منتصف السبعينيات من القرن الماضي.

وشرح الرجب المؤامرة التي دبّرت له في مصر بواسطة المباحث حول بعض الأمور المالية، وبقي من جرّائها في السجن مدة ٤٠ يوماً، حتى خرج بعد تدخّل عدد كبير من أصدقائه في مصر، من بينهم الأديب يوسف السباعي.

بعد الحرب العالمية الثانية، أصيب سوق الكتاب بكساد شديد، وأصبح الحصول على أكثر الكتب أمراً عسيراً؛ مما دعا الرجب إلى التفكير في نشر مجموعة من الكتب النادرة والمختارة بطريقة التصوير (الأوفست)، وهو بهذا يكون أول من جرّب هذه الفكرة في البلاد العربية كافة، وكانت البداية في العراق. ولما وجد التكلفة كبيرة اتّجه إلى طهران حيث الجودة ورخص الأسعار. وقد وجدت هذه التجربة استحساناً وقبولاً من كل المهتمين بأمر الكتاب في الداخل والخارج.

وتحدث الرجب في مذكراته عن علاقته بتجارة الورق، وما تعرّض له من ربح وخسارة في مجال هذه التجارة، وختم المذكرات بقوله: «ولا بد من القول أخيراً: إني ما بلغت الذي بلغت إلا لأني كنت مستقيماً في عملي، بعيداً عن كل ما يغضب الله تعالى؛ فلم أدخن، ولم أشرب، ولم أرتكب منكراً قط، ولم يشغلني شاغل عن تربية أولادي، والمطالعة الكثيرة، والإخلاص في توسيع نطاق عملي، وخدمة المكتبة بكل سبيل».

**قام الرجب منذ عام ١٩٤٨م بإصدار (قائمة مكتبة المثنى)، وهي كتاب أخذ يزداد ضخامةً وثراءً في كل طبعة جديدة، حتى نيّف عدد صفحاته على الخمسمئة صفحة، امتلأت بأسماء الكتب ومؤلفيها وأسعارها**




**الشبيلي، عبدالرحمن (وآخرون)، مجلس الشورى: قراءة تجربة تحديثية.. الرياض: المؤلف، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ٢٣٨ص.**

تقوم فكرة إعداد هذا الكتاب على قيام الأعضاء الذين عاشوا بدايات المجلس، واستمروا معه في عدة دورات، بتسجيل ذكرياتهم، وتوثيق تجربتهم، وتدوين تقويمهم لتحديثه وانطلاقته بعد مدة الانقطاع الطويل.

ويركز مشروع الكتاب في سبعة محاور، هي: المجلس بوصفه سلطة تنظيمية، ونظام المجلس ولوائحه، وعضوية المجلس، وأداء المجلس، والمجلس والمجتمع، والمجلس والهيئات الأخرى، والتجربة الشخصية لكل عضو.

ويكون دور المحرر - بالنسبة إلى المحاور الستة الأولى - صياغة ما يرد من المشاركين، ونسبة الآراء إلى أصحابها، والابقاء بالنسبة إلى المحور السابع على نصوص التجارب كما ترد بعد مراجعة صياغتها لغوياً فقط.

وقد وضع المحرر كل محور من المحاور السبعة في مدخل مستقل، قدّم له بخلفية نظامية عن موضوعه ومفرداته محل النقاش في شكل مقدّمة لا تحمل رأياً أو موقفاً، ثم حرص في أثناء مناقشة كل محور على الاستشهاد ببعض ما كتبه المشاركون في الدراسة من تجاربهم التي أثبتت نصوصها الكاملة في المحور الأخير؛ لذلك فإن قراءة المحاور الستة لا تغني عن قراءة مشاركات بقية الزملاء (في المحور السابع). وقد وضع في هامش كل مشاركة تعريفاً موجزاً بكل واحد منهم.

ونوّه المحرر بأن المشاركين في هذه الدراسة يشعرون بأن ما يمكن أن يقال - في محاورها الستة عن المجلس - أكثر مما دوّنوه في تجربتهم المكتوبة (في المحور السابع)، ولكنهم اجتهدوا في اختيار الأمور الأهم، التي تصبّ في مصلحة الوطن، وفي مستقبل المجلس، واستمرار تطويره.

والمشاركون هم: زهير السباعي، وزياد السديري، وصالح المالك، وعبدالرحمن الجعفري، وعبدالرحمن الشبيلي، وعبدالعزيز النعيم، وفالح الفالح، ومحمد الشريف.

# الأسطورة الأندلسية
# وأنثربولوجية التواصل

بولحية يحيى
وجدة - المغرب

تراث



الفيصل

يعدّ عدد من الأنثربولوجيين الأسطورة ديواناً موثقاً لتجارب معيشة الشعوب القديمة؛ لأن «هدف الميثولوجيا في المجتمعات المفتقرة للكتاب والأرشيفات يتحدد في ضمان بقاء المستقبل مخلصاً للحاضر بأكبر درجة من الوثوق»[١]. فبأيّ درجة يتحقق هذا المعنى في الأساطير المواكبة للوجود الإسلامي في بلاد الأندلس؟ وما طبيعة هذه الأساطير؟ وما المعاني والدلالات التي تحملها؟ وما الأدوات الإجرائية التي تمكّننا من قراءة مجالات التواصل والانقطاع الحضاري المبثوثة بين سطور حكاياتها الأسطورية، خصوصاً إذا علمنا أن الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس أثار عدداً من التساؤلات الخفية والمعلنة، تساؤلات الوعي واللاوعي عن حقيقة هذا الوجود ومضمونه في هذه القلعة التي شكّلت على الدوام قطب احتكاك بين الضفتين الشمالية والجنوبية من حوض البحر المتوسط؟

هل يمكن للأسطورة أن تكون أداةً من أدوات المعرفة التاريخية؟ وما الحدود التي يمكن من خلالها استثمار الخبر الأسطوري في بناء المعلومة التاريخية؟ وإلى أيّ حدّ تتحول فيه الأسطورة إلى كشاف حقيقي عن الذهنية المجتمعية التي احتضنته وأدمجته ضمن معتقداتها ورموزها الثقافية؟. إن المشكلة هي: أين تنتهي الميثولوجيا؟ وأين يبتدئ التاريخ؟.

إن الأسطورة كلمة يحوطها سحر خاص، توحي بالحلم حين يمتزج بالحقيقة، وقد شكّلت قاسماً مشتركاً بين الحضارات القديمة والحديثة، فأصبحنا نتحدث عن الأساطير المصرية، والبابلية، والصينية، واليابانية، واليونانية، وأساطير العرب، وشعوب المايا في البيرو. كما تعدّدت أصناف هذا النمط الثقافي، التي يمكن إجمالها في الأنماط الآتية:

- الأساطير الكسمولوجية Mythes cosmogoniques: وتتحدث عن نشأة الكون.
- أساطير العالم الآخر Mythes eschatologiques: وتبرز مسألة نهاية العالم، ومصير الفرد بعد الموت.
- أساطير النشأة وإعادة النشأة Mythes de la naissance et de la renaissance: وترمز إلى مفهوم تجديد الحياة وتجدُّدها.
- أسطورة البطل الثقافي Mythes du Héros culturel: وتخصّص لبعض الأشخاص؛ بسبب أعمالهم، وتضحياتهم، واكتشافاتهم.
- أساطير التأسيس Mythes de fondation: وتحكي تأسيس بعض المدن، وارتباط ذلك ببعض الأساطير: كأسطورة جلجامش في بابل، وأسطورة روميلوس ورميس في روما[٢].

وإذا كانت الأسطورة ظاهرة ثقافية معقدة فلأنها تطرح مشكل تحديد المعنى والتأويل من جهة. ولأنها تتماسّ وتتقاطع مع مجموعة من الحقول الثقافية والمعرفية من جهة أخرى، وهو ما يحتاج إلى فصل وتمييز لحل عدد من الإشكالات اللاحقة. ومن أهم هذه المفاهيم والقضايا الموازية: القصة الدينية في مرجعية النص الإسلامي، وكذا مفهوم الحكايات الشعبية أو الأحدوثة، ومدى انطباق مضمون الأسطورة عليهما.

لقد تحدث القرآن الكريم عن قصة الخلق والمعاد، والجنة والنار، وأبرز معجزات الأنبياء وسيرهم كحقائق مطلقة ومفارقة للمفاهيم الأسطورية ذات الإنتاج البشري الخالص. إن الأسطورة إذا كانت



إنتاجاً بشرياً ممزوجاً بالأحلام والأوهام فإن القصة الدينية ذات مصدر مغاير ومختلف تماماً؛ تحكي الواقعة والحادثة التاريخية في تجلياتها المطلقة والحقيقية. ومن هذا الجانب، فقد اختلطت في كتب المفسّرين حقائق التاريخ بالأساطير، وقد سمّيت هذه الأخيرة حين اندسّت إلى كتب التفسير باسم الإسرائيليات؛ إشارةً إلى أن مداخلها إلى التفسير لم تكن طبيعية؛ لأنها ليست حقائق مؤكدة، وإنما هي من دسّ بعض العناصر الدخيلة على الإسلام[٣].

ولعل هذه النزعة هي التي دفعت صاحب المقدمة إلى الإنكار الشديد للأخبار التي رواها المسعودي عن «الإسكندر لما صدّته دوابّ البحر عن بناء الإسكندرية، وكيف أخذ تابوت الخشب، وفي باطنه صندوق الزجاج، وغاص فيه على قاع البحر، حتى رأى صور تلك الدواب التي رآها»[٤]. وانتقد البكري عندما تحدث عن بناء «المدينة المسماة ذات الأبواب، تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة، وتشتمل على عشرة آلاف باب»[٥].

يرفض ابن خلدون - إذاً - النبأ الأسطوري، وينفي إمكانية اعتماده في ديوان الخبر التاريخي، منسجماً في ذلك مع قواعد العمران البشري التي التزمها في رواية الأحداث والأخبار وتحليلها واستبصارها.

تبتعد المسافة الزمنية بين عصرنا والحقبة التي عاشها ابن خلدون، ومعها تتزايد المعارف الجديدة والمناهج المستحدثة؛ كعلم النفس، والأنثربولوجيا، التي تسمح بمقاربات جديدة لموضوعات كانت تحتل موقعاً هامشياً ضمن الروايات التاريخية.

وعلاقةً بالموضوع، فإننا في موضوعنا الرئيس لا نهدف إلى البحث في درجة معقولية الأسطورة الأندلسية بقدر ما نروم تفكيك رموزها، وتأويل مضامينها، واستنتاج إشارات التواصل والتجاوز التي تتضمنها، مستعينين في ذلك بالاهتمام الواسع الذي بدأت

تتبوؤه الأسطورة والحكايات الشعبية في الدراسات التاريخية والأركيولوجية والأنثربولوجية، وفي مجال علوم اللغة، وغيرها.

فالإثنوغرافي موريس لينهارت يعدّ الأسطورة تجربة معيشة من طرف المجموعة، كما أن المحللين النفسيين ينظرون إليها كأداة تمكّن من توضيح بنية الحياة النفسية للفرد والوعي الجماعي وديناميتها.

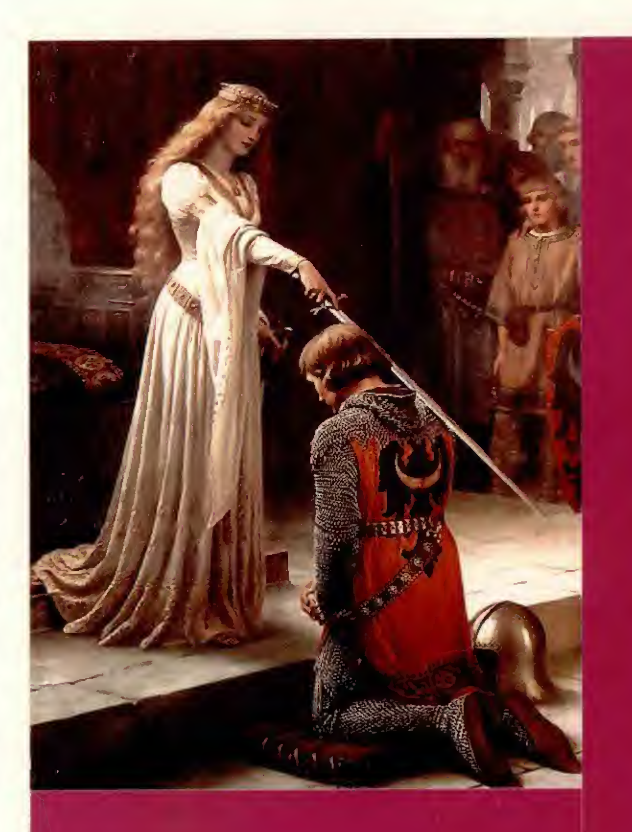
ومن جانب آخر، فإن الأساطير ليست على درجة واحدة من المعاني والدلالات؛ لأن بعض أنواعها تتشابه مع الحكايات الشعبية التي يتم تناقلها عبر الرواية الشفهية بالزيادة والنقصان، لتنتهي إلى أدب مكتوب ومدوّن، وبسبب ذلك فإن عدداً من الدراسات، خصوصاً الأدبية منها والمتأثرة بالكتابات السيكولوجية، تماثل بشكل أو بآخر بين الأسطورة والحكاية الشعبية، بل إن شتراوس يعرِّف الحكاية الشعبية بأنها المرحلة الجنينية للأسطورة[٦].

**الأساطير ليست على درجة واحدة من المعاني والدلالات؛ لأن بعض أنواعها تتشابه مع الحكايات الشعبية التي يتم تناقلها عبر الرواية الشفهية بالزيادة والنقصان**

تشكِّل هذه الضوابط بداية منهجية نحاول من خلالها مقاربة مسألة الأسطورة الأندلسية، التي تزامن إنتاجها وترويج قصصها مع بدايات الفتح الإسلامي للمنطقة.

إن الحديث عن الأساطير المرافقة للفتح والوجود الإسلامي في الأندلس يفرض ضرورة مساءلة المصادر التاريخية التي تناولت أحداث العصر الوسيط، واستنتاج مكانة النبأ الأسطوري الذي ضمّنته مصنفاتها الإخبارية وأهميته، وهو ما يمكننا من تحديد موقف المؤرخ المسلم من محتوياتها، وإدراك طبيعة الكتابة التاريخية الإسلامية في أثناء تعاملها مع هذا النوع من المصادر اللاإرادية.

ويمكن اتخاذ بعض النماذج دليلاً على المعاني التي تحملها بعض الأحدوثات والأساطير، ومنها أحدوثة فلورندا، وأسطورة بيت الحكمة في طليطلة؛ لما يجمع بينهما من روابط مشتركة ومتداخلة كما سيتبين من دراسة هذا الموضوع.

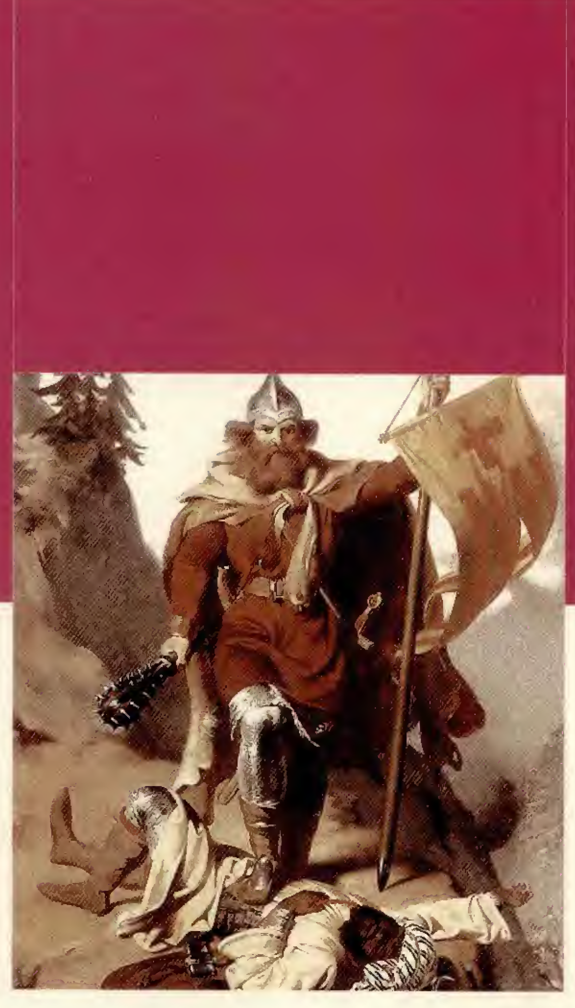


### حكاية فلوراندا وملامح الخبر الأسطوري

تباينت كتابات المؤرخين المسلمين في تعاملهم مع مجموع الحكايات والأساطير المرافقة لدخول المسلمين بلاد الأندلس. والملاحظ أن حكاية فلوراندا - ابنة يليان - شكّلت القاسم المشترك الذي التقت حول ذكره مختلف المصادر التاريخية العربية، وفي مقدمتها أخبار مجموعة لمجهول، ثم تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية. فقد ورد لدى الأخير[٧] أن سبب دخول طارق إلى الأندلس «أن تاجراً من تجار العجم يسمى يليان كان يختلف من الأندلس إلى بلاد البربر، ويجلب إلى لذريق عتاق الخيل والبزاة من ذلك الجانب، فتوفيت زوجة التاجر وتركت له ابنة جميلة، فأمر لذريق بالتوجُّه إلى العدوة، فاعتذر له بوفاة زوجته، وأنه ليس له أحد يترك ابنته معها، فأمر إدخالها القصر، فوقعت عين لذريق عليها، فاستحسنها فنالها، فأعلمت



الأسطورة قد تكون رمزاً لحالة سياسية حقيقية



أباها بذلك عند قدومه، فقال للذريق: إني تركت خيلاً وبزاة لم ترَ مثلها، فأذن له في التوجُّه فيها، وبعث معه المال، وقصد طارق بن زياد، فرغبه في الأندلس، وذكر له شرفها وضعف أهلها، وأنهم ليسوا أهل شجاعة».

وقد أورد ابن القوطية الخبر من دون سند أو رواية، على خلاف المنهج العام الذي ألزمه نفسه في مصنفه المذكور، فعلى سبيل المثال: قال في أثناء حديثه عن الظروف السياسية للأندلس قبل الفتح: «أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز، قال: حدثنا غير واحد من علمائنا... إن آخر ملوك القوط بالأندلس غيطشة توفي عن ثلاثة أولاد، وكانوا صغاراً عند وفاة أبيهم... وانحرف لذريق وكان قائداً للملك أبيهم»[٨].

لقد تعامل المؤرخون اللاحقون باحتياط وحذر مع مضمون هذه الرواية التاريخية، واكتفى صاحب المقدمة بالقول: وكان يليان ينقم على لذريق ملك القوط لعهده بالأندلس؛ لفعله بابنته في داره - كما زعموا - على عادتهم في بنات بطارقهم. فغضب لذلك وأجاز إلى لذريق فأخذ ابنته منه»(٩). ولا شك أن عبارة (كما زعموا) تحيل على قيمة الشك في نسبة الرواية إلى أصحابها على عادة ابن خلدون في ضبط النبأ باعتماد المقاربة العقلانية لتأكيد الحدث التاريخي أو نفيه.

ومن جانب آخر، أغفل بعض المؤرخين ذكرها، وعدّها غير ذات فائدة؛ فقد ورد لدى الواقدي أن طارق بن زياد غزا الأندلس «فلقيه يليان - وهو والٍ على مجاز الأندلس - فأمنه طارق على أن حمله وأصحابه على الأندلس في السفن»[١٠].

لا نريد الاسترسال في ذكر الروايات التي تحدثت عن حكاية فلورندا، والبحث والتنقيب في مدى صدقيتها؛ فهذا موضوع ينأى بنا عن المطلب الأساسي الذي نريد من خلاله تحليل الرموز والدلالات التي وردت في الروايات السالفة.

تحضر صورة المرأة بشكل محوري من خلال حكاية فلوراندا، وتبدو ملامح الأنوثة والخطيئة واضحة في أوصافها ومآلها.

واغتصاب لذريق شرفها وعذريتها لا يدلّ فقط على الفعل المادي المحسوس، بل إن الوجه الباطني للأحدوثة لها يدلّ على اغتصاب لذريق السلطة السياسية، وفضّه بكارة فلورندا يدلّ على خرقه شروط تداول السلطة، وهو ما تؤكده الأحداث التاريخية التي تثبت ذلك، ومنه ما ذكره ابن القوطية سابقاً.

وإذا كانت المصادر التاريخية أوردت الحكاية متأرجحة بين التسجيل المحايد والإهمال والتشكيك؛ فإن السؤال الذي يطرح نفسه بشدة: ألم يكن اعتداء لذريق على فلوراندا الشكل الآخر للاغتصاب السياسي للسلطة؟! وبعبارة أخرى: ألم تكن حكاية فلوراندا رمزاً أسطورياً لحالة سياسية حقيقية؟! إذ يسمح الخبر/ الأحدوثة بنشر الفض السياسي للأعراف والتقاليد السالفة وتأويلها عبر القاعدة الشعبية الواسعة التوّاقة إلى استقبال عناصر الإثارة ولغة الرموز والإشارات.

### أسطورة بيت الحكمة.. محاولة في التأويل

تعدّ أسطورة بيت الحكمة من أمتن النصوص التي تسري عليها قواعد الخبر الأسطوري؛ فقد احتوت على ما يشبه الحبكة القصصية، وحملت مجموعة من العلامات والدلالات التي تفصح عن طبيعة القوالب الذهنية التي أنتجتها ونجحت في نشرها باعتماد لغة الألغاز والرموز. وقد أوردها قلة من الإخباريين والمؤرخين، ومنهم صاحب أخبار مجموعة، وصاحب الروض المعطار؛ فقد ذكر الحميري قائلاً: «وكانت طليطلة دار المملكة بالأندلس حينئذ، وكان بها بيت مغلق متحامى الغلق، يلزمه ثقات من القوط قوم قد وكلوا به لئلاً يُفتح؛ فقد عهد الأول في ذلك الآخر، كلما ملك منهم ملك زاد على البيت قفلاً، فلما ولي لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما في البيت، فأعظم ذلك أكابرهم، وتضرَّعوا إليه في الكف، فأبى... ففضّ الأقفال عنه ودخله، فأصابه فارغاً لا شيء فيه إلا تابوتاً عليه قفل، فأمر بفتحه، فألفاه فارغاً لا شيء فيه إلا شقة مدرجة، قد صوِّرت فيه صور العرب في الخيول، وعليهم العمائم، متقلّدي السيوف، متنكّبي القسيّ، رافعي الرايات على الرماح، وفي أعلاها كتابة بالعجمية، فقرئت، فإذا هي: إذا كسرت هذه الأقفال عن هذا البيت، وفتح هذا التابوت، فإن الأمة المصوّرة فيه تغلب على الأندلس وتملكها. وعظم غمّه وغم العجم، وأمر برد الأقفال، وإقرار الحراس على حالهم»[11].

وقد أغفل ذكر هذه الأسطورة عدد ممن درسوا وأرّخوا للحقبة الموازية لها، وفي مقدمتهم ابن خلدون؛ بسبب مضمونها المخالف لقواعد العمران البشري، القائم على منطق المقاربة العقلية والتجريبية للحدث التاريخي.

ومن هذا الموقع لا يجب مؤاخذة هؤلاء على تنكُّرهم ذكر مثل هذه الروايات، أو تهميش مكانتها ضمن السياق التاريخي العام الذي تتحدث عنه؛ لأن لكل عصر أدواته التحليلية والمعرفية؛ فقد سمحت العلوم الجديدة كالأنثربولوجيا بإضافة نوعية جديدة إلى أنماط التحليل التاريخي؛ مما أسبغ عليه نوعاً من الشاعرية، وسمح له بتفسير بعض الأحداث التي كانت تصنَّف ضمن المساحات الغامضة في ديوان الخبر التاريخي وتأويلها.

إن الكلمة الأسطورية هنا - أسطورة بيت الحكمة - رسالة مشفرة تحتوي على مجموعة من الرموز والألغاز المتكاملة الأدوار والوظائف. فبدايةً نجد أنفسنا أمام لغز محيّر، ممثَّلاً في عقدة البيت المغلق، وقد تميّز بإحكام الإغلاق بالأقفال من طرف ملوك القوط المتداولين على السلطة، الذين تواتروا على وضع الأقفال في أثناء بدايات حكمهم، وهو ما يرمز إلى منطق استمرارية النظام الإداري والسياسي الداخلي ضمن ثوابت تحمل معنى العقد والتوافق الجماعي، كما تدلّ على معنى التواصل الأفقي ووجود خطوط حمراء لا يجب تجاوزها أو النيل من (قدسيتها).

ولعل ذلك ما يوضّح الانتقال السلمي للسلطة السياسية طوال هذه المرحلة من تاريخ إسبانيا، واستمرار شرعية الحكم من خلال استمرارية وضع الأقفال كشكل من أشكال التعاقد السياسي المحكم غير القابل للخرق والتجاوز.

وفي الجهة المقابلة، ضم بيت الحكمة مختلف عناصر الحماية

**الأسطورة هي التعبير الحقيقي عن مخيال المجتمع وإنتاجاته الثقافية والرمزية، إنها العمق الذي يحتضن التراكمات، ويؤسِّس لنمط العلاقة مع الذات والآخر**

للمجتمع القوطي من خلال رمز التابوت الذي يرمز إلى السكينة والأمان والحماية من الأخطار. وفي رواية أخرى، ضم الأناجيل الأربعة التي كانوا يقسمون بها، وأضيف إلى ذلك تكليف ثقات من القوط ببذل الجهد للحفاظ على البيت مغلقاً بالطريقة المعهودة.

وتستدعي القراءة الأولية طرح سؤال يبحث في الغاية من هذه الرموز المادية والمعنوية التي أنيطت بها مهمة تحقيق الأمن والوجود، وحجم الخطر الذي تطلّب كل هذه الترسانة من الرموز لتحقيق عناصر الحماية.

لقد احتوى هذا التابوت نفسه الخطر القاتل والنبوءة المدمرة، التي جسّدتها الصورة النمطية للإنسان العربي وهو يمتطي وسائل الحرب، ويحمل كل دلالات القوة والحرب والعنف.

نحن - إذاً - أمام ثنائية مركّبة لا يمكن فهم مضمونها إلا بعنصريها السالفين؛ إذ يمثّل التابوت — السكينة - وجهها الظاهر، في حين يبرز باطنها - صورة العرب - عنصر الخطر والموت والفناء.

وقد كان بالإمكان الاكتفاء بهذه الصورة لاستنباط الرموز والدلالات، لكن أضيفت إلى ذلك جملة باللغة العجمية زادت في توضيح وجهي الثنائية المحيّرة، وفكّكت لغز العلاقة بين شدة الإغلاق وتعدُّد الأقفال من جهة، وصورة العرب المدججين بالأسلحة والمتأهبين للحرب والعنف من جهة أخرى، فخلصت إلى أن فضّ الأقفال لم يكن يعني سوى إخراج الصورة النمطية العربية من مجالها الثابت والسكوني إلى بُعد حركي مدمّر ومميت.

إن فضّ لذريق الأقفال يرمز — على وجه التأويل - إلى القطيعة التي أحدثها مع التقاليد السياسية السابقة، وخرقه شروط التداول السياسي السلمي باغتصابه السلطة من أبناء غيطشة، وفضّه أعرافها الملزمة، وهو ما تؤكده الأحداث التاريخية اللاحقة. كما أن الخطر العربي في بنية الأسطورة انتقل، بفعل هذا الاغتصاب السياسي، من مرحلة الوجود بالقوة إلى طور الوجود بالفعل.

كما تنفي أسطورة بيت الحكمة أيّ شكل من أشكال التواصل الإسباني العربي؛ فالمخيال القوطي ينظر إلى الإنسان العربي

الأسطورة الأندلسية محملة بمعلومات جديرة بالتتبّع والتحليل والاستثمار



بحذر وخوف وتوجّس، والأقفال تلغي التواصل معه، ويعدّ فضّها مؤشراً على الخطر والموت والفناء.

إن الأقفال ليست دائماً مادية، لكنها معنوية أيضاً، وترمز إلى خيار اللاتواصل على مستوى اللاوعي الجماعي. وعندما تحلّ عقد الأقفال، كرمز لبداية التواصل؛ فإن ذلك يؤدي - على العكس من ذلك - إلى فتح أبواب الخطر ووقوع الهزيمة.

ولإتمام المشهد يذكر الحميري أن طارقاً «لما ركب البحر غلبته عينه، فرأى النبي - صلى الله عليه وسلم - وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف، وتنكّبوا القسيّ»(١٢)، وهي الصورة نفسها التي رآها لذريق داخل التابوت في بيت الحكمة. وفي رواية للمقري التلمساني يذكر أن طارقاً لما أقبل في «أصحابه، من فوق رؤوسهم العمائم البيض، وبأيديهم القسيّ العربية، وقد تقلدوا السيوف، واعتلقوا الرماح، فلما نظر إليهم لذريق حلف وقال: إن هذه الصور التي رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا، فداخله منهم الرعب»(١٣).

إن أسطورة بيت الحكمة لم تكن سوى إعادة ترتيب درامي لحدث سياسي واقعي، امتزجت من خلاله الحقيقة بالخيال، والرمز بالمعنى، والوسيلة بالغاية، وكانت لحظة أرّخت لنمط العلاقة بين المجتمع القوطي الإسباني والمجتمع العربي الإسلامي في بلاد الأندلس، وهي علاقة افتقدت إلى المقومات النفسية والوجدانية الكفيلة بتحقيق منطق التواصل الحضاري.

لقد حرّر النص بلغة متماسكة، تحمل عناصر الإثارة، وتدفع في اتجاه اتخاذ موقف شعبي من لذريق ورجاله، وتحميلهم مسؤولية فضّ المسلمين العذرية النصرانية لبلاد الأندلس. وفي الجهة المقابلة، نجد أن أغلب الروايات التاريخية تتحدث عن (خيانة) يليان، ومساعدته طارقاً في هذا الدخول. ومن هنا لا يستبعد أن تكون الأسطورة من وضع أركان النظام السابق لإبعاد التهمة عنهم، وتثبيتها ونسبتها إلى لذريق الذي خرق شروط التداول السياسي.

يتبيّن لنا مما سبق أن الأسطورة الأندلسية يمكنها أن تمدّنا بمعلومات جديرة بالتتبّع والتحليل والاستثمار: فعدد من الأنثروبولوجيين يرون أنها ديوان موثّق لتجارب معيشة الشعوب القديمة: لأن «هدف الميثولوجيا في المجتمعات المفتقرة للكتاب والأرشيفات يتحدد في ضمان بقاء المستقبل مخلصاً للحاضر والماضي بأكبر درجة من الوثوق»(١٤).

إننا من خلال هذا المبحث لا نثبت لها الحقيقة الموضوعية، لكننا ندرس من خلالها طبيعة الذهنية المنتجة للخبر الأسطوري، وأشكال تمثّلها للآخر المخالف. إن منتجي أسطورة بيت الحكمة ومروّجيها هدفوا إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من الانتشار للمعاني والرموز التي تحملها وسط الفئات العريضة من المجتمع الأندلسي المسيحي؛ بسبب جاذبيتها، وقوة الرموز التي تحملها وتشير إليها.

إن الإنتاج الأسطوري يعبّر عن حقيقة المشاعر ونمط العلاقات التواصلية أكثر مما تفصح عنه الوثيقة التاريخية التقليدية المعروفة. إنه يوضّح حالة اللاوعي الذي يرسم ملامح الصورة النمطية عن الآخر، وهي حالة الرفض وعدم القبول بفكرة التعايش التواصلي بفعل صورة مرسومة سلفاً عن الآخر الخطير والمدمر.

إن أسطورة بيت الحكمة تفتح أمامنا إمكانات مهمة لقراءة العمق الحضاري لمجموعة من قيم التواصل لدى قطاعات واسعة من شرائح الغرب الثقافي ونخبه، مع ثقافة الإسلام والمسلمين وحضارتهم.

الأسطورة هي التعبير الحقيقي عن مخيال المجتمع وإنتاجاته الثقافية والرمزية





الأسطورة رسالة مشفرة تحتوي على مجموعة من الرموز والألغاز



إن الأسطورة هي التعبير الحقيقي عن مخيال المجتمع وإنتاجاته الثقافية والرمزية، إنها العمق الذي يحتضن التراكمات، ويؤسِّس لنمط العلاقة مع الذات والآخر. أليست الرموز والمعاني في أسطورة بيت الحكمة السالفة هي عين ما تتحدث عنه اليوم أغلب وسائل الإعلام الغربية بخصوص صورة الإسلام والمسلمين؟! ألسنا في نظرهم قنبلة موقوتة يجب تجميد فعاليتها، وتثبيت حركيتها، وإغلاق باب التاريخ دونها، وتخصيص الاعتمادات المادية والرمزية للحيلولة دون خروجها من عمق الظلام والخطر المدمر؟! ألم تكن تصريحات البابا الأخيرة والهجمة الشرسة على الإسلام ورموزه الوجه الآخر لأسطورة بيت الحكمة؟!

صحيح أن الغرب ليس كتلة واحدة؛ ففي بعض مؤسساته، ومن خلال بعض نخبه ومفكّريه، يمكن التقاط شذرات تؤسّس لبداية تواصل، لكنه بطيء وجزئي لا يفي بتحقيق مبدأ التعارف الحضاري الإيجابي والسليم، الذي أكدته درر الوحي وتوجيهاته الإنسانية.

إن المطلوب تغيير الصورة النمطية التي أنتجها الغرب عن

## المراجع


١- كلود ليفي ستراوس، الأسطورة والمعنى، ترجمة: صبحي حديدي، منشورات عيون، ١٩٨٥م، ص٣١.

٢- مادة م، Mythologie cd encarta 2004, page2 -3.

٣- جورج أنطونيوس جورجي أنطونيوس، طرابيه، الوجدية وأثرها في الأندلس، مكتبة المدرسة، ١٩٨٣م، ص٧.

٤- ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ص٦٨.

٥- نفسه، ص٦٩.

٦- مادة contes populaires, cd encarta2004, page: 1.

٧- ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري اللبناني، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م، ص٣٣.

ذواتنا وتاريخنا ورموزنا. والأكيد أن ذلك ليس بالشيء اليسير؛ لأن الحقب التاريخية الطويلة وحجم التراكمات الموروثة واللوبيات المعادية لقيم المساواة والتضامن الإنساني في بعض المؤسسات والمراكز والجامعات تطرح أمامنا العوائق والحواجز. إن الرد المؤسساتي إعلامياً وفكرياً واقتصادياً وسياسياً كفيل بأن يقيم الصرح الإنساني المنشود والتواصل الحضاري المرغوب فيه.

إن الغرب لن يعترف بنا كأنداد له إلا إذا استرجعنا قامتنا الحضارية القائمة على مبدأ العلم بمختلف أنواعه وأغراضه. وأسّسنا مستقبلنا بإقامة نسيج مجتمعي نزّاع - بمجموعه - إلى الحفاظ على الذات الثقافية المحتضنة والدافعة في اتجاه التغيير والتطوّر.

**الغرب لن يعترف بنا كأنداد له إلا إذا استرجعنا قامتنا الحضارية القائمة على مبدأ العلم بمختلف أنواعه وأغراضه**

٨- نفسه، ص٢٩.

٩- ابن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، المجلد الرابع، القسم الأول، ٧، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠م، ص٢٥٣.

١٠- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م، ص٣٢٣.

١١- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط٢، ١٩٨٠م، ص٣٤.

١٢- الحميري، مصدر سابق، ص٣٥.

١٣- المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، الجزء الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ص٢٤٢.

١٤- كلود ليفي ستراوس، الأسطورة والمعنى، ترجمة: صبحي حديدي، منشورات عيون، ١٩٨٥م، ص٣١.




**هود، محمد صالح/النظام العالمي للزكاة .. الرياض: المؤلف، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ٢٢١ص.**

يهدف المؤلف من هذا الكتاب إلى إحياء فريضة الزكاة، وتعظيم شأنها، وتفعيل دورها في التنمية الشاملة بأسلوب يناسب العصر.

وقد قصد المؤلف في كتابه أن يشمل بعض الأساسيات في مجال الزكاة، رابطاً فقهها المرن بمحاسبتها المعاصرة، وسياستها الاقتصادية، وذلك بعكس سياسة الفصل التي نلحظها في كثير من القضايا الإسلامية.

وقد استشهد المؤلف، إضافةً إلى نبع القرآن الصافي، وهدي السنة الجلي، ببعض آراء الغربيين والمستشرقين المنصفين، لدحض افتراءات بعض المشككين المنتسبين إلى الإسلام، الذين ينادون بفصل الدين عن الدولة، ويعتقدون أن الزكاة لا تناسب العصر، ويحسبونها دريهمات تدفع للمتسوّلين على أطراف الطرقات من باب التطوع أو التفضّل عليهم، ونسوا أنها فريضة مقدسة تطهر المال بإعطائها اليتيم والمسكين، والمجاهد، والمؤلَّف، والأسير، والغارم، والمسافر المنقطع، والعامل على الزكاة. كذلك رمى المؤلف في هذا الكتاب إلى تعريف غير المسلمين اليوم بإحدى درر هذا الدين الكامنة، بل إحدى ركائزه الأصيلة؛ لعلها تكون سبباً في شرح صدورهم للإسلام.

وقد قام المؤلف في هذا الكتاب، بمساعدة ذوي الخبرة والاختصاص، بوضع رؤية مستقبلية شاملة لنظام الزكاة، ودورها العالمي في درء الفقر، ومواجهة الأعداء، ودعم مشروعات التنمية والإعمار في الدول المغلوبة على أمرها، بدلاً من أن يتصدق علينا اليهود والنصارى.

يقع الكتاب في خمسة فصول، اقتصر الفصل الأول على تمهيد قارن فيه المؤلف بين النظام العالمي الجديد «العولمة» والنظام الإسلامي المتكامل، وتناول في الفصل الثاني «النظام العالمي للزكاة»، وجاء في الفصل الثالث «مقترح تفصيلي عن النظام العالم للزكاة»، وحددّ في الفصل الرابع «فوائد النظام الاقتصادية والاجتماعية»، وجاء الفصل الخامس عن «دور النظام العالمي للزكاة في وحدة وتكامل المسلمين».

وجاء في خاتمة الكتاب «الخلاصة والتوصيات».



قـصـة

# عزيزة

وليد إبراهيم قصاب

الرياض - السعودية

توقّفتَ عند عتبة الباب، لم تكمل الدخول. لمحتَ شبح امرأة غريبة محجبة تجلس مع أمك، أردتَ أن تصعد إلى غرفتك فوراً، ولكن أمك نادتك:

- صلاح، صلاح. تعال، لن تصدِّق من عندنا.

وأكملتْ أمك تدعوك:

- هذه عزيزة يا صلاح.

عزيزة؟.. كدتَ ألا تكون سريع البديهة. هممتَ أن تتابع طريقك إلى غرفتك، ولكن أمك نادتك بإلحاح:

- هذه عزيزة بنت أم سليم رحمها الله.. نسيتَها؟

كاد قلبك يسقط بين جنبيك. عزيزة بنت أم سليم؟.. آه يا زمان.. معقول؟ كيف أنساها؟

وفي لحظات معدودة اشتغل حاسوب الرأس الرباني. رحتَ تستحضر كل شيء. بدأ الحاسوب يسترجع شريط ذكريات قديماً، عمره عشرون سنة.. كنت في العاشرة، وكانت عزيزة في الثامنة، طفلان يدرجان في الحارة، جاران الحائطُ لصْق الحائط.

أم سليم - رحمها الله - صديقة حميمة لأمك، لا تكادان تفترقان

إلا في سواد الليل. الأكلة والشربة معاً، كأنهما أختان تسكنان بيتاً واحداً، وليستا جارتين كلٌ في بيتها.

أنت وحيد أهلك، وعزيزة وحيدة أهلها بعد أن استشهد أخوها سليم في حرب عام ١٩٦٧م مع اليهود.

عزيزة دائماً عندكم أو أنت عندهم. كنت تعدّها مثل أختك تماماً، إلى أن تناهى إلى سمعك وسمع عزيزة ذات يوم حديث يدور بين المرأتين. سمّرك في مكانك قول أمك:

- عزيزة لصلاح، وصلاح لعزيزة.

وردُّ أم سليم:

- إن شاء الله يا أم صلاح.. أمنيتي.

نظر الصغيران بعضهما إلى بعض ببراءة ومودّة. ولكنك من يومذاك ربطت مشاعرك بعزيزة، أصبح يغمرك فرح طفولي رائع كلما رأيتها، ليس فرح الأخ بأخته على كل حال، بل فرح ذو طعم آخر، تنسى معها الدنيا وما فيها، تحسّ أنك غارق في بحر من النشوة لا تعرف لها كنهاً ولا تفسيراً. وإذا مرّ يوم لم ترَ فيه عزيزة اسودَّت الدنيا في عينيك، وسقطت من فوق الغيم.

مرة مرّ أسبوع لم ترها. لم تعد تستسيغ طعاماً ولا شراباً. شغلت عن دروسك ومذاكرتك. استحييت منذ سمعت ما سمعت أن تسأل عنها في أول الأمر، ثم عصرك الشوق فلم تُطقْ. قلت بلهفة وعتاب لم تستطع إخفاءهما:

- أين عزيزة يا أمي؟.

ضحكت أمك، قرأتك سطراً سطراً. قالت لك وهي تحتضنك: ذهبت تزور خالتها، فاستبقتها أياماً.. اشتقت إليها يا صغيري؟ لا تدري إلى الآن لم أجهشت بالبكاء يومذاك؟ ورأيت نفسك تندفع ببراءة الأطفال لتقول:

- سمعتك تقولين لخالتي أم سليم: عزيزة لصلاح، وصلاح لعزيزة.. ماذا تعنين يا أمي؟.

ضحكت أمك حتى كادت تنقلب على ظهرها:

- أيها العفريت، سمعتَ إذاً كل شيء. أنت أذكى من قرد، وفاهم والله كل شيء.

ومضت إلى شأنها، ولم تزد.

* * *

عرف كل منكما أنه للآخر، لم تعُد المعاني - على صغركما - ملتبسة. صرت تغار عليها كالرجال، وصرت تحسّ أنك

مسؤول عنها، بل صرت تشعر أن عليك أن تمارس عليها رجولة الرجال.

أصبحتَ تأمرها وتنهاها كما يأمر أبوك أمك وينهاها. ومن عجب أنها كانت تستلذّ ذلك. تبدو طروباً أن تكون طوع أمرك، وأن تخفض لك جناحها. وأن تتمسّح بك كما تتمسّح القطة بصاحبتها.

كنت تحسّ بالفحولة والفتوة وأنت تقول لها:

- عزيزة، ادرسي حتى تكوني الأولى في الصف.

وكان يسوؤك أن تقول لك:

- أنا لا أحب الدراسة مثلك يا صلاح، الدراسة همّ وغمّ. وتلبس ثوب الواعظين فتقول لها:

- بل الدراسة علم وفهم. ادرسي يا عزيزة.

ثم تضيف:

- أريدك مثقفة متعلمة.

فتستحي، وتغضّ أهدابها الوطفاء، وتحسّ أنت بالرجولة.

* * *

مرّت الأيام، وكبرت عزيزة - كعادة الفتيات - بسرعة، راحت تستدير نحو الصبا، نضج فيها كل شيء، كنت تراقب ذلك مبهوراً منتشياً، ولكن كان لذلك كله ثمن باهظ: حرمت رؤية عزيزة الصبية، لم تعُد تأتي مع أمها إلا نادراً، وإذا أتت لم تعُد تخلو بها كأيام زمان، تظلّ إلى جانب أمها لا تتبعك، تظلان تتبادلان النظر من بعيد، ويقرأ كل منكما أعماق الآخر.. ثم انقطعت عن الحضور مع أمها. لم يعُد أبوها يسمح بذلك، وعندما فاض بك الكيل ذات يوم اندفعت تسأل أمك وأنت تعرف الجواب:

- لماذا لم تعُد عزيزة تأتي مع أمها؟

ضحكت أمك وقالت بمودّة:

- ألا تعرف أيها العفريت؟ عزيزة صارت صبية، ولا يجوز أن تظهر أمام غريب.

غريب! صفعتك الكلمة.. أنت غريب الآن عن عزيزة التي قضيت سنوات تلعب معها ولا تفترقان أبداً؟

أحسّت أمك - كالعادة - بكل ما في داخلك. عجّلت تخفّف عنك:

- استعجل.. تخرّج في الجامعة وتوظّف حتى أخطبها لك.

لكنك لا تزال في السنة الثانية.. مشوارك طويل طويل.. هل من أمل أن تظلّ عزيزة بانتظارك؟

إن البنت اليوم كالزهرة الناضرة، كالبدر الساطع في كبد السماء، كل يوم يطرق باب أبيها خاطبون جاهزون.

* * *

علمتَ يوماً - كما كنت تتوقع - أن عزيزة قد خُطبت، ومع ذلك لم تكد تصدّق أذنيك. وقع الخبر عليك كالصاعقة. أهكذا بهذه البساطة ينتهي كل ما كان بينكما؟ أين كلام أم سليم - رحمها الله - وكلام أمك:

- صلاح لعزيزة، وعزيزة لصلاح؟.

قرأت أمك ماضي داخلك من غير أن تتكلم، قالت لك مواسيةً:

- البنت يا ولدي بلغت سن الزواج من سنوات.. انتظروك طويلاً، لم يكونوا يؤثرون عليك أحداً، ولكنك مازلت في أول الطريق، مشوارك يا صلاح طويل طويل.. الجامعة والدراسات العليا والوظيفة.. البنت يا ولدي تكبر بسرعة، قطار الزواج يغادرها على عجل.

سكتت دامعة العينين، ثم أكملت:

- صعب أن نربطها بمستقبل غامضة ملامحه.. جاءها عريس رضي أبوها دينه وخلقه وحالته الاجتماعية، فقلتُ: أنت في حلّ يا أم سليم. وكل شيء قسمة ونصيب.

وتزوّجت عزيزة، وانشغلتَ أنت بدراستك الجامعية، ثم سافرتَ سنوات لإكمال دراستك العليا.. سرقتك الدراسة والتحصيل عن كل شيء، أو سرقت منك كل شيء، صرت دكتوراً كبيراً.

فكّرت طويلاً في عزيزة، كانت تضيء في جوانح نفسك بين الحين والحين، لكنك كنت تشغل بسرعة. استسلمت لقدرك، وعلمت أن عزيزة لم تخلق لك.

* * *

ما الذي أتى بعزيزة اليوم؟ عشرون سنة مضت. علمتَ أنها تزوّجت خارج دمشق زواجاً موفقاً كان زوجها رجلاً صالحاً تقياً ميسور الحالة، رُزقت منه بنات وبنين، فرحت لها كما لم تفرح لأحد في عمرك.

- تعال يا صلاح.

ما زالت أمك تناديك، وأنت مغمض العينين عند عتبة الباب تتابع شريط السنين.



- تعال يا صلاح، هذه عزيزة بنت أم سليم جارة حارتنا القديمة.
دنوت حيياً كأنك مازلت ذلك الطفل الصغير.
- السلام عليكم.
أسدلت عزيزة خمارها على وجهها كما اعتادت أن تفعل أمام الرجال الغرباء مذ بلغت.
ردّت عليك:
- وعليكم السلام، كيف حالك يا دكتور صلاح؟
«دكتور صلاح».. لم تدرِ لمَ لمْ يطربك هذا اللقب من فمها؟ أحسستَ أنك تفضّل أن تناديك بصلاح فقط: حتى تشمّ عبق السنين. ولكن عبق السنين قد تلاشى، وجدتَ نفسك تردّ عليها بالمثل:

- الحمد لله، وأنتِ كيف حالك يا مدام عزيزة؟
لم تجرؤ أن تنظر إليها لترى ماذا أحدث الزمن فيها، ولكنك كنتَ على يقين أنك لو قابلتها بعد خمسين سنة لعرفتها.
كان معها طفلان في مثل سنّيكما يوم افترقتما؛ ولد وبنت، قالت:
- هذا عمر، وهذه صفاء.. وعندي ثلاثة آخرون.
رحتَ تنظر إليهما بحبّ ومودّة، رأيت في صفاء صورة عزيزة التي تعرف، حملتَها تقبّلها، ثم انحنيت على عمر تقبّله.
انسللتَ إلى غرفتك بعد أن استأذنت، ومضى يتتابع أمامك شريط العمر.




# العميان

## في الحضارة الإسلامية

محمد بن علي الهرفي

الهفوف - السعودية

المتتبّع الحضارة الإسلامية منذ عهد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - حتى نهاية الخلافة العثمانية يلمس بوضوح الحرص الشديد على تلمّس احتياجات كل أصحاب الاحتياجات الخاصة، خصوصاً فاقدي البصر منهم. ويعكس هذا الحرص نظرة الاحترام والتقدير لهذه الفئة التي تستحق كل أنواع المساعدات من الدولة الإسلامية، وكذلك من القادرين من جميع فئات المجتمع.

نال فاقدو البصر القدر الأكبر من الاهتمام، وقد بدأه الرسول الكريم قولاً وعملاً؛ ففي الحديث: إن الله قال: «إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر عوّضته عنها الجنة». وقد كان يعهد لعبد الله ابن أم مكتوم - رضي الله عنه - بالصلاة عنه إذا كان غائباً في غزوة، وهذا يعدّ من أفضل أنواع التكريم في الثقافة الإسلامية، كما كان ابن عباس - رضي الله عنهما - يؤمّ الناس بعد أن فقد بصره.

وقد كان موقف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من الشاعر الكفيف أمية بن الأسكر الكناني معبّراً بصورة كبيرة عن تعاطف الخليفة مع هذا الشاعر، الذي كان في أمسّ الحاجة إلى ابنه «كلاب»، الذي كان قد خرج للجهاد في العراق وترك والده ووالدته وحيدين، وعندما دخل والده على عمر أنشده قصيدة قال فيها:

لمن شيخان قد نشدا كلابا
كتاب الله لو عقل الكتابا

تركت أباك مرعشة يداه
وأمك ما تسيغ لها شرابا

فإنك والتماس الأجر بعدي
كباغي الماء يتّبع السرابا

فبكى عمر رضي الله عنه، وأمر قائد جيشه في العراق بإعادة «كلاب» إلى المدينة: ليكون بجوار والديه، وأمره - عندما عاد - ألا يفارقهما حتى يموتا.

وقد خطا الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك خطوات متقدمة في رعاية أصحاب الاحتياجات الخاصة، وعدّ ذلك جزءاً من واجبات الدولة تجاههم، فأمر بتخصيص قائد لكل أعمى يسهر على راحته، كما أمر بإعطائه راتباً شهرياً، وخصّص منازل ملائمة لمن لا يجد بيتاً منهم.

وقد فعل عمر بن عبدالعزيز كما فعل الوليد بن عبدالملك، وأمر جميع ولاته أن يولوا المكفوفين عنايةً كبيرةً، بالإضافة إلى عنايتهم بكل أصحاب العاهات الأخرى.

ويذكر ابن بطوطة في رحلته أنه لما دخل العراق رأى جماعة من العميان ومع كل واحد منهم غلام يقوده، كما أكد أن الدولة كانت تجري على كل واحد منهم نفقة تكفيه.

وقد كان للعميان مكانة كبيرة في الأدب العربي؛ فقد ألف الجاحظ

كتابه الشهير عن المعاقين المسمى «البرصان والعرجان والعميان والحولان»، تحدّث فيه عن إسهامات هؤلاء في الأدب والحضارة، كما أشار إلى عدد من مشاهيرهم.

وقد كتب ابن قتيبة كتاب «المعارف» عن المكفوفين، كما كتب ابن الجوزي عن مشاهير العميان من الأشراف، وكذلك صلاح الدين بن أيبك الصفدي الذي ألّف كتابا سمّاه «نكت الهميان في نكت العميان».

هذه الحضارة المبدعة أتاحت فرصة كبيرة لنبوغ مجموعة كبيرة من العميان في مختلف التخصّصات، منهم بشار بن برد الذي كان يفتخر بإصابته ويعدّها طريقاً لنبوغه، يقول:

إذا ولد المولود أعمى وجدته

وجدك أهدى من بصير وأحولا

عميت جنيناً والذكاء في العمى

فجئت عجيب الظن للعلم معقلا

أما ابن عباس، فهو يرى أن الله قد عوّضه خيراً مما أخذ منه، وأن العمى مهما كان صعباً فقد استطاع أن يتجاوز هذه الصعوبة بما أعطاه الله من مميزات أخرى، يقول:

إن يأخذ الله من عينيّ نورهما

ففي لساني وسمعي منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذي دَخَل

وفي فمي صارم كالسيف مأثور

ومن جوانب اهتمام الدولة والمحسنين بفئة المكفوفين تخصيصهم أوقافاً كبيرة لهذه الفئة: فقد ذكر ابن خلكان في (وفيات الأعيان) أنه لا تكاد تخلو بلد من بلدان الخلافة الإسلامية من وقف خيري لأصحاب العاهات، خصوصاً المكفوفين: ولهذا نبغ منهم مجموعة كبيرة في مختلف أنواع العلوم، وكان لهم مؤلفات متميزة أسهمت في دفع عجلة الثقافة العربية بصورة واضحة.

إن حضارتنا الإسلامية راعت معظم احتياجات المعوقين قبل أن يلتفت إليها الآخرون بمئات السنين، وكان الدين الإسلامي منبع هذا الاهتمام: ولهذا بقي حياً في نفوس الناس حتى عصرنا الحاضر.











في البدء كانت الكلمة.. وفي البدء أيضاً كانت اليدان تتحركان مع صرخات الوليد الأولى.. ربما ليلوّن بهما فضاء هذا الوجود الجديد الذي قدم إليه..

اليد الماهرة هي اليد الأولى ذاتها، لكن الإنسان أبى إلاّ أن يزيّن بها وجوده، ويلطّف من جهامته، تدفعه الحاجة حيناً وشهوة الإبداع ولذة الاكتشاف أحايين أكثر..

تأملوا ملياً.. فالكون أكثر تواضعاً منا. إنه أستاذنا الأول؛ لأنه ببساطة لا يرفض الإبداع الجميل.

ع. الكويليت





